

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

تَأْمَلَاتُ فِي سِرِّ الْإِسْتِغْفَارِ  
وَأَثَرِهِ فِي تَطْهِيرِ الْقَلْبِ وَاسْتِعَادَةِ الطَّرِيقِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

تأملات في سر الاستغفار  
وأثره في تطهير القلب واستعادة الطريق

تأليف  
رَدَّاد السَّلَامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة الكبرى

باب لا يغلقه الذنب

ليس الاستغفار كلمةً يقولها المذنب ثم يمضي كأن شيئاً لم يكن، وليس اعتراً عابراً يُلقيه اللسان ليخفف به وطأة الضمير؛ إنه من أعمق أبواب معرفة الإنسان بنفسه، ومن أرحب أبواب معرفته بربه. ففي لحظة الاستغفار يقف المرء أمام حقيقتين لا يجوز أن يبدل موضع إحداهما بالأخرى: أنه أخطأ، وأن الله يغفر الذنوب. فإذا هو أنكر خطأه خلع نفسه، وإذا نسي سعة مغفرة الله أطبق على روحه باباً لم يغلقه الله.

والإنسان لا يفسده الذنب وحده، بل قد يفسده ما يجيء بعد الذنب: أن يعتاد التبرير حتى يفقد حساسيته، أو أن يستسلم للقنوط حتى يظن أن عودته لم تعد ممكنة. وبين التبرير واليأس يقف الاستغفار ممراً للنجاة؛ لا يحو حقيقة ما وقع، ولا يهونها حتى تصير قدراً أبدياً على صاحبها، بل يضعها في موضعها الصحيح: ذنبٌ يحتاج إلى اعتراف وتوبة وإصلاح، وربٌّ كريمٌ لا يضيع من رجع إليه صادقاً.

وحين يقول العبد: أستغفر الله، فهو لا يطلب محو أثرٍ من سجلِّ حسب؛ إنه يعلن أنه لم يخلق لنفسه مخزجاً من خطئه، وأنه لا يملك أن يطهر قلبه بإنكار الحقيقة، ولا أن يرد نفسه إلى الطريق بقوته وحدها. إنه يرجع إلى الله من عجزه، ويطلب منه أن يغفر له، وأن

يستره، وأن يقيه تبعة الذنب وآثاره، وأن يعينه على ألا يعود إليه. في هذه الكلمات القليلة اعترافٌ بالفقر، وخلعٌ لثوب المكابرة، ووقوفٌ على عتبة الرجاء.

وليس الاستغفار حيلةً لغويةً يتصالح بها الإنسان مع خطيئته، ولا وعداً بأن تختفي نتائج أفعاله في الدنيا كلما حرك لسانه بالكلمة. فثمة حقوق ينبغي أن تُردّ، ومظالم ينبغي أن تُرفع، وعادات لا يكفي لقطعها الندم وحده، وجراح قد تحتاج إلى زمن كي تلتئم. لكن الاستغفار الصادق يفتح في النفس باب العمل: يرى المخطئ ما فعل، ثم يسأل الله العون على إصلاحه؛ ولا يجعل ثقله عذراً للاستمرار، ولا يجعل ندمه سبباً يمنعه من النهوض.

هذا الكتاب محاولةٌ للتأمل في الاستغفار بوصفه عبادةً تعيد الإنسان إلى الطريق: كيف يبدأ الرجوع حين يضيق الصدر بالذنب؟ ما الفرق بين أن يطلب المراء المغفرة وأن يتوب؟ كيف يجتمع الخوف من عاقبة الخطيئة مع حسن الظن بالله؟ ماذا يفعل من عاد إلى ذنبه بعد توبة؟ وكيف يستغفر من خطأ لم يعد قادراً على ردّ زمنه، لكنه قادرٌ على أن يغيّر وجهته؟

سنقرأ آيات المغفرة في سياقها، ونقف عند استغفار الأنبياء لا بوصفه نقيضاً لكالهم، بل شاهداً على كمال عبوديتهم وافتقارهم إلى ربهم. وسننظر في أثر الاستغفار على الذاكرة واللسان والاختيار، وفي معنى أن يظل باب الرجوع مفتوحاً من غير أن يُتخذ ذلك ذريعةً للإقامة في الخطأ. فلا نريد كتاباً يهون الذنب حتى يميت الندم، ولا كتاباً يضحّمه حتى يميت الرجاء؛ نريد أن نرى الذنب في ضوء عدل الله، وأن نرى المغفرة في ضوء رحمته،

وأن نفهم الطريق بينهما كما رسمه الوحي: اعترافٌ، وندمٌ، ورجوعٌ، وإصلاحٌ، ورجاءٌ لا ينقطع.

وهكذا يبدأ الكتاب من سؤالٍ يتجاوز: كم مرة أقول «أستغفر الله»؟ إلى سؤالٍ أعمق: أيُّ إنسانٍ أصير حين أستغفر؟ هل أعود أقلَّ غفلةً، وأصدقَ اعترافاً، وأشدَّ حرصاً على ردِّ الحقوق؟ هل يصير الاستغفار في قلبي باباً إلى التواضع والعمل، أم يبقى صوتاً مألوفاً لا يغيّر شيئاً؟ إن الكلمة لا تُقاس بعدد مرات مرورها على اللسان وحده، بل بما تفتحه في القلب من رجوع، وما توقظه في الإرادة من صدق.

ومن هنا تبدأ رحلتنا: من إنسانٍ أثقله ما فعل، إلى عبدٍ عرف أن خطيئته عظيمة، لكن رحمة الله أعظم؛ وأن الطريق قد يبتعد، لكنه لا ينتهي ما دام القلب قادراً أن يقول بصدق: ربِّ، إني ظلمت نفسي، فاغفر لي.

## الفصل الأول

حين لا تكون الخطيئة آخر الحكاية

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[آل عمران: ١٣٥]

تضعنا هذه الآية أمام صورة إنسانية كاملة، لا أمام صورة إنسانٍ لا يخطئ. إنها لا تبدأ بذكر الملائكة ولا بوصف قومٍ لم تزل أقدامهم قط، بل تبدأ بأناسٍ فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم؛ ثم تكشف ما يصنعونه حين تقع العثرة: يذكرون الله، فيستغفرون لذنوبهم، ولا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون. كأن القرآن لا يعد القلب بأنه لن يعرف الضعف، لكنه يعلمه ألا يجعل الضعف وطناً، وألا يحول الخطيئة من فعلٍ وقع إلى هويةٍ يقيم فيها الإنسان.

ليس كل سقوط نهايةً للطريق؛ قد يكون بعض السقوط بدايةً رؤية الطريق على حقيقته. فالإنسان قبل العثرة قد يمضي في حياته مستنداً إلى صورةٍ عن نفسه يظنها مكتملة: صالحٌ لا يزل، أو عارفٌ لا يغفل، أو قويٌّ لا تفتنه رغبة. فإذا أخطأ انكشف له شيء من حقيقته: أنه عبدٌ محتاج، وأن قلبه ليس ملكاً لقوته وحدها، وأن بين ما يعرفه وما يقدر عليه مسافةٌ لا يردمها الادعاء. لكن هذا الانكشاف قد يذهب به إلى أحد

باين: باب التواضع والرجوع، أو باب التبرير والقنوط؛ والاستغفار هو الذي يحرسه من أن يضلّ في أحدهما.

تبدأ الآية بقول الله تعالى: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. والفعل هنا لا يُمحى بتغيير اسمه. لا تسمي الآية الخطيئة زلّة بريئة في كل حال، ولا تطلب من الإنسان أن يجمل ما قبح، أو أن يهون ما عظم الله. إن أول أبواب الرجوع أن يرى العبد ما وقع منه كما هو: ظلماً للنفس، أو تعدياً على حدود الله، أو أذى وصل إلى إنسانٍ آخر. فالتوبة التي تبدأ بإنكار الحقيقة لا تمضي بعيداً؛ لأنها تحاول أن تخرج من الذنب من غير أن تعترف بوجوده.

ومع ذلك، لا تقف الآية عند الفعل، ولا تترك صاحبه أسيراً له. إنها تنتقل سريعاً إلى ما بعده: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾. وفي هذا الانتقال سرٌّ من أسرار الرجوع: لم يبدأ المذنب بتعداد فضائله ليعادل بها خطأه، ولم يفتش عن عذرٍ يخفف به مسؤوليته، بل عاد إلى الله؛ تذكّر من عصاه، وتذكّر أنه لم يخلق عبثاً، وأنه ليس متروكاً لنفسه، وأن للذنب حقيقةً وللمغفرة حقيقةً أخرى. فالنسيان يوسّع الذنب حتى يصير كأنه كل الحكاية، أما ذكر الله فيعيد الأشياء إلى مقاديرها: نعم، وقع الخطأ؛ لكن الله غفور، والطريق إليه لم يُغلق.

ثم تقول الآية: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾. لم يكن ذكر الله فكرةً ساكنةً في أذهانهم، بل صار رجوعاً باللسان والقلب؛ طلبوا المغفرة من ربهم، وأقروا أن الذنب ذنبهم، وأنهم لا يملكون أن يزيلوا أثره بإنكارهم. والاستغفار ليس أن يقول الإنسان «أستغفر الله» ثم يخرج من الكلمة كما دخل؛ إنه سؤالٌ يحمل في داخله اعترافاً: ربّ، أخطأت. ويحمل

رجاءً: ربّ، اغفر لي. ويحمل فقراً: ربّ، لا أستطيع أن أظهر نفسي من غير عونك. فإذا صدق هذا المعنى في القلب، بدأ اللسان يفتح باباً للعمل، لا باباً إلى التهاون.

ولذلك يجيء السؤال القرآني بعد الاستغفار: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. سؤال لا يعلمنا مجرد معلومة، بل يردّ القلب إلى الجهة التي ينبغي أن يقصدها. فالتناس قد يخفون عنك لومهم، وقد ينسون ما صنعت، وقد يسيئون الظن بك، لكن غفران الذنب إلى الله؛ إليه يُرفع الندم، ومنه تُطلب المغفرة، وهو أعلم بما أظهر العبد وما أسرّ. وليس في هذا ما يعني الإنسان من حقوق الخلق أو من إصلاح ما أفسد؛ إنما فيه ألا يطلب من المخلوق ما لا يملكه، وألا ييأس من ربّ جعل المغفرة من أسمائه وأبواب رحمته.

ثم تختم الآية بوصفٍ يحرس الرجاء من أن يتحول إلى تهاون: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. فالآية لا تجعل الاستغفار كلمةً تمنح صاحبها رخصةً في الإقامة على الذنب، ولا تصف الرجوع بأنه مجرد ألم عابر يعقبه إصرارٌ مطمئن. إنها تذكر موقفاً يتبدّل فيه اتجاه القلب: يترك المكابرة، ويكفّ عن حماية الخطأ، ولا يتعامل مع علمه بالله وبالحق كأنه علم لا يقتضي شيئاً. فالمعرفة التي لا توقظ صاحبها قد تصير حجةً عليه؛ أما المعرفة التي ترده إلى الله فهي بداية بصيرة.

ولا يعني هذا أن من تاب لن تعود نفسه إلى الضعف أبداً، أو أن كل من عاد إلى الذنب كان كاذباً في توبته الأولى؛ فحكم السرائر إلى الله، والإنسان قد يضعف بعد صدق ثم ينهض من جديد. لكن الفرق عظيم بين من يكره الذنب ويقاومه ويجاهد نفسه، وإن عثر، وبين من يرضى به ويألفه ويقم له الأعذار. الاستغفار لا يطلب من الإنسان أن

يدّعي العصمة؛ يطلب منه ألا يصالح الخطيئة، وألا يجعل عجزه عن الكمال عذراً للتخلي عن المجاهدة.

وهنا تتجلى رحمة الآية: لم تقل إن الذين لم يقعوا في خطأ هم وحدهم أهل القرب، بل فتحت في وصف المؤمنين باباً لمن وقع ثم ذكر، ولمن ظلم نفسه ثم استغفر، ولمن عرف قبح ما فعل فلم يُغلق على نفسه باب العودة. ليس ذلك تهويناً للذنب؛ بل إنقاذاً للإنسان من أن يضيف إلى ذنبه ذنباً آخر: أن ييأس من رحمة الله، أو أن يتكبر عن الاعتراف، أو أن يصّر لأنه ظن أن الرجوع لم يعد ممكناً.

إن الخطيئة قد تجرح القلب، لكنها لا تملك وحدها أن تكتب خاتمته. وقد تترك في الذاكرة أثراً لا يزول بمجرد كلمة، لكن الأثر نفسه يمكن أن يصير موضع عبرة وتواضع وحذر. ومن رحمة الله أن جعل بين الإنسان وبين ماضيه باباً اسمه التوبة، ومفتاحاً يقرع به ذلك الباب اسمه الاستغفار. فإذا دخل منه صادقاً، لم يعد مطالباً بأن يتظاهر بأنه لم يسقط؛ بل أن ينهض، وأن يرى ما ينبغي إصلاحه، وأن يمشي إلى الله بما بقي فيه من صدق.

فالإنسان لا يُختصر في أسوأ ما فعل، كما لا يُزكى بأحسن ما فعل. هو عبدٌ تتجاذبه الطاعة والمعصية، ويقوم بينهما ما يختاره بعد أن تنكشف له الحقيقة: أليستكبر عن الرجوع، أم يعود؟ أيعي خطأه، أم يستغفر؟ أيسمح لذنبه أن يطفئ رجاءه، أم يجعل الندم باباً يردّه إلى الله؟

وهكذا تبدأ الحكاية التي يفتحها الاستغفار: لا من إنسانٍ لم يعرف الظلمة، بل من إنسانٍ لمح في آخرها باباً، فذكر الله، وسأله المغفرة، وعزم ألا يجعل من عثرته إقامةً دائمة.

## الفصل الثاني

### أستغفر الله: معنى الفقر والرجوع

حين يقول العبد: أستغفر الله، تبدو الكلمات قصيرةً على اللسان، لكنها تفتح في داخله أبواباً متتابعة. فهو لا يطلب شيئاً يملكه، ولا يعلن اكتفائه من ذنبه، ولا يزعم أنه يستطيع أن يعيد الزمن إلى الوراء؛ بل يقف في موضع العبد الذي عرف حاجته، ويطلب من ربه ما لا يقدر عليه إلا هو: أن يغفر له، وأن يرحمه، وأن يعينه على إصلاح ما أفسد.

ولذلك كان الاستغفار اعترافاً قبل أن يكون لفظاً. إن قولك: «أستغفر الله» يتضمن أن ثمة ذنباً يحتاج إلى مغفرة، وأنت لا تملك أن تبرئ نفسك بمجرد رغبتك في البراءة. وهذه منزلة دقيقة؛ لأن النفس إذا خافت من مواجهة خطئها راحت تبحث عن أسماء أطف له: تسمي الظلم حزماً، والخيانة مصلحة، والغيبة كشفاً للحقيقة، والكسل عجزاً لا اختياراً. فإذا استغفر الإنسان حقاً، بدأ يخلع عن الذنب الأسماء التي تستره، ويراه في ضوء الحق الذي تجاوزه.

وقد علّنا القرآن هذا الأدب في دعاء آدم وزوجه عليهما السلام، حين قالوا:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣]

لم يبدأ بالاعتذار عن فعلهما، ولم يتحملا المسؤولية لغيرهما، ولم يقولوا: إن الأمر كان يسيراً أو إن العقوبة لم تكن معلومة؛ بل قالوا: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. إنهما يريان الخطيئة من

جهة أثرها في النفس: فالذنب ليس مخالفةً عابرةً لأمر الله فحسب، بل ظلمٌ يوقعه المرء بنفسه حين يعرضها لما لا يليق بها، ويبعدها عن الخير الذي خلقت له. ثم جاء بعد الاعتراف طلب المغفرة والرحمة؛ لأن العبد يعرف أن نجاته لا تقوم على حسن عبارته، بل على فضل الله.

وفي ترتيب الدعاء معنى يستحق الوقوف: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾. لم يطلب المغفرة كأنها محوٌ منفرد لواقعة مضت، بل قرناها بالرحمة؛ فالمغفرة ترفع تبعة الذنب، والرحمة تدارك ضعف العبد، وتعينه على أن يستقيم بعد عثرته. وما أحوج الإنسان إلى الأمرين معاً: أن يُغفر له ما وقع، وأن يُرحم في الطريق الذي يبدأ بعد الغفران؛ فالعودة ليست لحظة ندمٍ فحسب، بل حياةٌ تحتاج إلى توفيقٍ وثبات.

وفي موضع آخر يجمع القرآن بين الاستغفار والتوبة، قال تعالى على لسان هود عليه السلام:

﴿وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

[هود: ٣]

إن مجيء الاستغفار ثم التوبة يلفت النظر إلى أن الرجوع ليس صوتاً منفرداً، بل حركة لها باطنٌ وظاهر. يستغفر العبد ربّه، فيقرّ بذنبه ويطلب الصفح؛ ثم يتوب إليه، فيحوّل وجهته ويترك طريق المعصية. ولا يلزم من هذا أن نجعل بين اللفظين حداً جامداً في كل

سياق، فهما يلتقيان ويتداخلان، لكن اجتماعهما يذكرنا بأن طلب المغفرة ينبغي أن يصحبه رجوعٌ في العمل، وأن التوبة لا تستغني عن سؤال الله العون والقبول.

فالاستغفار الذي لا يوقظ إرادة الإصلاح قد يبقى أمنيّةً يرددها اللسان، والتوبة التي تستغني عن سؤال الله قد تنكئ على قوةٍ موهومة. العبد محتاجٌ إلى أن يفعل ما يستطيع: يترك الذنب، ويردّ الحق إلى صاحبه، ويتعد عن أسبابه، ويجاهد نفسه؛ ومحتاجٌ في الوقت نفسه إلى أن يسأل الله أن يقبل منه، وأن يثبتته، وأن يغفر له ما لا يستطيع إصلاحه بيده. هنا يلتقي السعي بالافتقار: لا يعتمد على عمله كأنه يملك به النجاة، ولا يترك العمل بحجة أن الأمر كله إلى الله.

ومن هنا نفهم أن كلمة «أستغفر» تحمل معنى الفقر. فالعبد لا يقف بين يدي الله مزهواً بقدرته على تجاوز خطئه، بل معترفاً بأنه قد يضعف مرةً أخرى، وأن قلبه يحتاج إلى عصمة الله، وأنه لا يأمن على نفسه من تقلبها. وليس هذا ضعفاً مذموماً؛ بل هو معرفةٌ بحقيقة الإنسان. فالذي يرى حاجته إلى الله يكون أقرب إلى الحذر من الغرور، وأقدر على أن يستعين به في مواضع الضعف قبل أن تتسع المسافة.

لكن الفقر إلى الله لا يعني أن يتوارى الإنسان خلف عجزه. فليس له أن يقول: أنا ضعيفٌ، إذن لا أستطيع أن أغير؛ ولا أن يجعل من حاجته إلى المغفرة حجةً لتكرار الأذى. إنما الفقر الصادق يدفعه إلى العمل؛ لأنه يعلم أن الله أمره بالتوبة والإصلاح، ويدفعه إلى الدعاء؛ لأنه يعلم أن قلبه لا يثبت إلا بعون الله. ينهض بما يستطيع، ويستغفر

مما فرط فيه، ويطلب العون فيما يعجز عنه. ولهذا لا يكون الاستغفار استسلاماً للضعف، بل خروجاً من عبودية النفس إلى عبودية الله.

وقد يظن بعض الناس أن كثرة الاستغفار دليلٌ على أن صاحبه غارقٌ في الذنب، أو أن العبد لا يستغفر إلا بعد خطيئةٍ ظاهرة. لكن الاستغفار أوسع من ذلك. إنه اعترافٌ دائم بأن العبد لا يفي بحق الله، وأن الطاعة نفسها تحتاج إلى قبول، وأن القلب قد يدخله العجب أو الغفلة حتى في مواطن العمل الصالح. فليس كل استغفارٍ حكايةَ معصيةٍ مخصوصة؛ قد يكون شكرًا على أن الله أيقظ صاحبه، وقد يكون استدراكًا لنقصٍ لا يراه الناس، وقد يكون افتقارًا إلى مغفرة الله ورحمته في كل حين.

وهذا المعنى يحرر الاستغفار من أن يكون مجرد محطةٍ طارئة بعد السقوط. إنه بابٌ يظل مفتوحًا في الرخاء كما في الشدة، وبعد الطاعة كما بعد المعصية؛ لأن العبد لا يستغني عن ربه في حالٍ من أحواله. فإذا أحسن شكر، وإذا أساء تاب، وإذا أطاع سأل القبول، وإذا عجز استعان. وفي جميع هذه الأحوال يبقى القلب واقفًا على باب الله، لا يرى لنفسه غنى عنه.

إن الإنسان حين يستغفر لا يقول فقط: «لقد أخطأت»، بل يقول أيضًا: «لا أريد أن أترك لخطيئي، ولا أريد أن تكون نفسي وحدها مرجعي، ولا أملك لنفسي مغفرةً ولا ثباتًا». لذلك قد تكون همسةٌ صادقةٌ بالاستغفار أوسع أثرًا من كلماتٍ كثيرةٍ تقال بلا حضور؛ لا لأن اللفظ القليل يغني عن العمل، بل لأن القلب إذا صدق في الطلب بدأ يسمع ما ينبغي أن يفعله بعد الدعاء.

أستغفر الله: اعترافٌ لا يفضح صاحبه عند الخلق، بل يرده إلى الله؛ وطلبٌ لا يعفي من المسؤولية، بل يوقظها؛ وفقرٌ لا يشلّ الإرادة، بل يعلمها أن تستعين؛ ورجوعٌ لا يكتمل بمجرد الدم، بل يمضي بصاحبه نحو التوبة والإصلاح. وما أعظم أن يعرف الإنسان أن بابه إلى الله لا يفتح بقوته وحدها، ولا يُغلق بذنبه وحده؛ بل يقف بينهما عبداً يقول: ربّ، اغفر لي، وأعني على أن أرجع إليك كما تحب.

### الفصل الثالث

#### بين الاستغفار والتوبة: سؤال المغفرة وطريق الرجوع

يجمع القرآن بين الاستغفار والتوبة في مواضع، فيضيء لنا من اجتماعهما معنى لا يظهر بالقدر نفسه حين يُذكر أحدهما وحده. قال تعالى على لسان هود عليه السلام:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

[هود: ٣]

كأن الآية تأخذ بيد الإنسان في خطوتين متصلتين: أن يطلب من الله مغفرة ما مضى، ثم يتجه إليه بقلبه وعمله. فالاستغفار يتضمن سؤال الصفح والستر، والتوبة تتضمن الرجوع والإنابة؛ وبين السؤال والرجوع صلة وثيقة، لا تجعل أحدهما زائداً عن الآخر، بل تكشف أن حياة العبد مع الله تحتاج إلى الدعاء والعمل معاً.

غير أن التفريق بين اللفظين ليس حداً جامداً في كل استعمال. فقد يأتي الاستغفار في القرآن مقترناً بالتوبة، وقد تذكر التوبة وحدها في سياقٍ يتضمن طلب المغفرة، وقد يدل كل لفظٍ بمفرده على معنى أوسع بحسب المقام. لذلك لا نحمل الفرق على قالب واحد لا يتغير، وإنما نتأمل ما يضيفه اقترانها في هذا الموضع: استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه. سؤال يتجه إلى الله، ورجوع يتجه به العبد إلى ربه.

والإنسان قد يطلب المغفرة وهو ما يزال يخاصم معنى الرجوع؛ يريد أن يطمئن إلى العفو، لكنه لا يريد أن يغيّر الوجهة التي قادته إلى الذنب. وقد يندم على ما وقع، ثم لا

يسأل الله العون ولا يستغفره، كأن إرادته وحدها تكفيه. فجاء اقتران اللفظين لينع  
اختلال الطريق: لا تجعل طلب المغفرة غطاءً للإقامة على الخطأ، ولا تجعل قرارك بالتغيير  
استغناءً عن رحمة الله وتوفيقه.

الاستغفار يوقظ في العبد السؤال: من يغفر لي؟ والتوبة توقظه إلى سؤال آخر: إلى أين  
أمضي الآن؟ الأول يردّه إلى فضل الله، والثاني يردّ خطواته إلى الطاعة. وقد يبدأ الرجوع  
بندم لا يحسن صاحبه التعبير عنه؛ فيرفع قلبه إلى الله مستغفراً، ثم تثبت له في الأيام  
التالية مواضع الإصلاح: عادةً ينبغي أن يقطعها، أو حقٌّ ينبغي أن يردّه، أو صفةٌ تجرّه  
إلى ما يضعف أمامه، أو بابٌ اعتاد أن يفتحه ثم يندم عند عتبته.

ومن هنا لا تكون التوبة لحظةً عاطفيةً عابرةً فحسب، وإن صحبها البكاء أو رقة القلب.  
إنها انعطافٌ في الوجهة: أن يتوقف الإنسان عن حماية الذنب، وأن يكفّ عن توفير  
الطريق إليه، وأن يختار ما يقربه من الله بدل ما يبعده عنه. والاستغفار يعين هذا  
الانعطاف؛ لأن القلب الذي يسأل المغفرة يعترف أنه لا يملك خلاص نفسه، فيزداد  
افتقاراً إلى الله، ويصير أقدر على مقاومة الوهم الذي يقول له: أستطيع أن أعود إلى الخطأ  
متى شئت، ثم أستغفر في أي وقت.

لكن الرجوع لا يعني أن العبد صار معصوماً من كل عثرة، ولا أن صدق توبته يُقاس  
بأنه لم يضعف قط بعدها. الإنسان قد يصدق في توبته ثم تغلبه نفسه في موضع آخر، ولهذا  
لا ينبغي أن يتخذ احتمال الانتكاس عذراً لعدم التوبة، كما لا ينبغي أن يجعل وقوعه بعد  
التوبة دليلاً قاطعاً على أن رجوعه الأول كان كذباً. الذي ينبغي أن يخشاه هو الإصرار

الواعي، وأن يحذر من أن يصلح الذنب ويقيم له في قلبه منزلةً لا يرضاها الله. فإذا عثر بعد رجوعه، عاد واستغفر، وجدد توبته، وأخذ من عثرته معرفةً بأسباب ضعفه.

وهنا تظهر حاجة التوبة إلى الاستغفار: فالعبد لا يعود بقوته وحدها. ربما تاب من ذنبٍ يعرفه، لكنه لا يرى كل ما بقي في قلبه من أثره؛ وربما صدق في تركه، لكنه خاف أن يتسلل إليه العجب بتوبته؛ وربما أصلح عملاً ظاهراً، وهو يعلم أن قبوله عند الله ليس مما يملكه. فيستغفر لا ليكرر الاعتذار فحسب، بل ليبقى قلبه مفتقراً إلى الله، راجياً عفوه، خائفاً من التقصير، غير مغترّ بما قدّم.

وتظهر حاجة الاستغفار إلى التوبة حين يُراد له أن يكون أكثر من حركة لسان. فالاستغفار الصادق لا يكتفي بأن يقول: «اغفر لي»؛ بل يفتح على صاحبه باب السؤال عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه بعد ذلك. إن كان الذنب أذىً للإنسان، فهل يمكن جبره أو ردّ حقه؟ وإن كان عادةً تتكرر في خلوةٍ أو صحبةٍ أو وقتٍ بعينه، فما الذي ينبغي تغييره في تلك الظروف؟ وإن كان ظلماً مستمراً، فهل يتركه صاحبه ويكفّ أثره؟ إن طلب المغفرة لا يحو واجب الإصلاح، بل يردّ الإنسان إلى مسؤوليته بقلبٍ يرجو العون من الله.

ولذلك فإن من الخطأ أن تُجعل التوبة حكماً على الذنوب التي يراها الناس، أو أن يُختصر الاستغفار في جملةٍ تقال عقب معصيةٍ معلومة. قد يحتاج المرء إلى أن يتوب من سخطٍ استقر في قلبه، أو كبرٍ حجب عن الاعتراف بالحق، أو غفلةٍ جعلته يؤخر ما يعلم وجوبه، أو

قسوةٍ تجاه من أئتمه. والاستغفار يرافقه في هذا كله؛ لأنه يعلمه أن القلب نفسه يحتاج إلى تطهير، وأن العبد قد يخطئ في باطنه كما يخطئ في ظاهره.

وإذا اجتمع اللفظان في طريق العبد، استقام له معنى الرجاء: لا يطلب المغفرة لبقى كما هو، ولا يتوب معتمداً على نفسه، بل يستغفر مستعيناً بالله، ويتوب عاملاً بما استطاع. الرجاء هنا ليس أن يطمئن إلى قبولٍ يضمّنه لنفسه، بل أن يُحسن الظن بربه، ويبدل ما أمر به، ويعلم أن فضل الله أوسع من عمله، وأن حاجته إليه لا تنتهي عند أول خطوة في الطريق.

إن الاستغفار يعلم القلب كيف يقف بين يدي الله، والتوبة تعلّمه كيف يمشي بعد ذلك. الأول يفتح باب المغفرة، والثانية تحمل العبد في طريق العودة؛ فإذا فصل أحدهما عن الآخر اختلّ المعنى: صار الاستغفار لفظاً بلا تحوّل، أو صار العمل اعتماداً على النفس بلا افتقار. أما إذا التقيا، فإن العبد ينظر إلى ماضيه بعين الندم، وإلى حاضره بعين المسؤولية، وإلى مستقبله بعين الرجاء.

وهكذا لا يقتصر السؤال على: هل قلتُ أستغفر الله؟ بل يمتد إلى: ماذا فعلتُ بعد أن استغفرت؟ هل كففتُ عن الذنب؟ هل بدأتُ إصلاح ما استطعت؟ هل طلبتُ من الله أن يثبتني؟ إن الاستغفار يقرع باب الرحمة، والتوبة تدخل منه بخطوات صادقة؛ وكلها ضعفت الخطوة، عاد العبد إلى الباب، لا متكبراً على العون، ولا يائساً من القبول.

## الفصل الرابع

الله الغفور التواب: من يعرف ربه لا يئأس من بابه

لا يبدأ الاستغفار بمعرفة العبد لذنبه وحده؛ يبدأ أيضاً بمعرفته بمن يستغفره. فقد يعرف الإنسان قبح ما فعل، ويشعر بثقل ما تركه خلفه، لكنه إذا جهل سعة رحمة الله جعل ذنبه جداراً، وظن أن الطريق انتهى عنده. وقد يكثر من ذكر المغفرة، لكنه لا يفهمها إلا بوصفها لفظاً يخفف عنه لحظة ثم يعيده إلى خوفه الأول. لذلك يعرف القرآن العبد بربه، ويضع أسماء المغفرة والرحمة والتوبة أمام القلب؛ حتى لا يطلب المغفرة من تصوّر مضطرب، ولا يئأس من باب وصفه الله بأنه باب رحمته.

قال تعالى:

﴿نَحْنُ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الحجر: ٤٩]

تأمل كيف تبدأ الآية بنداؤه يحمل لطفًا: ﴿عِبَادِي﴾. لم يأت النداء بعد أن زال عنهم كل نقص، ولا بعد أن صاروا فوق الضعف البشري؛ إنما هم عباد الله بما فيهم من افتقار وحاجة، والله يأمر نبيه أن يخبرهم عنه: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. فكان التعريف بالله يسبق انغلاق القلب على ذنبه؛ وكأن أول ما يحتاج إليه المذنب أن يسمع من الوحي من هو ربه، قبل أن يحدث نفسه طويلاً عن فداحة ما فعل.

وليس في هذا التعريف دعوة إلى الاستهانة بالمعصية، ولا ضماناً يتخذه المرء حجةً على الإصرار. فالقرآن الذي يفتح باب الرجاء هو نفسه الذي يأمر بالتوبة ويحذر من البغي والفساد. لكن الرجاء الصحيح لا يهون الذنب؛ بل يمنع الذنب أن يقطع صاحبه عن الله. ومن عرف أن الله غفورٌ رحيمٌ لم يقل: سأخطئ ثم أتكئ على المغفرة، بل قال: أذنبت، ولا أجد ملجأً من أثر ذنبي إلا أن أرجع إلى من وسعت رحمته كل شيء.

وإذا كان اسم الغفور يوقظ في القلب رجاء محو الذنب والصفح عنه، فإن اسم التواب يفتح معنى الرجوع المتكرر. قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٨]

في هذه الآية يظهر أن توبة العبد لا تنشأ في فراغٍ مقطوعٍ عن رحمة الله؛ فالله هو الذي يهيئ لعبده أسباب الرجوع، ويوقظ قلبه من غفلته، ويفتح له باب التوبة، ثم يتوب عليه إذا تاب. وليس معنى ذلك أن الإنسان مسلوب الإرادة أو أن مسؤوليته تسقط؛ بل هو تذكيرٌ بأن الهداية إلى الرجوع نفسها نعمة، وأن العبد لا يستغني عن توفيق الله في أول الطريق ولا في آخره. يسعى العبد ويتوب، والله يقبل التوبة ويعين عليها، وكل ذلك داخلٌ في فضله ورحمته.

واسم التواب يحمل للقلب معنىً يحتاج إليه كل من يعرف تقلب نفسه: أن باب العودة لا يفتح مرةً واحدةً ثم يُغلق عند أول عشرة. فالتائب قد ينهض اليوم، ثم تضعف نفسه

غداً؛ وقد يبتعد عن موضع كان يألفه، ثم يكتشف في قلبه بقية تعلقٍ يحتاج إلى مجاهدة؛ وقد يندم على ذنبٍ ثم يعود إليه، فيحتاج أن يجدد رجوعه، وأن يطلب العون على ما لم يستطع قطعه وحده. لا تجعل هذه الحقيقة العبد آمناً من الذنب، لكنها تمنعه أن يعتقد أن السقوط أخرجه من إمكان التوبة.

ويجب أن يفهم هذا المعنى بميزانه: تكرار الرجوع ليس إذناً بتكرار المعصية، ولا التوبة العابرة تصحح الإصرار. وإنما هو ألا يترك العبدُ باب الله إذا عثر، وألا يضيف إلى زلته بأساً أو استكباراً. فالتائب الصادق لا يعتمد أن يجعل التوبة محطةً يستريح إليها قبل أن يعود إلى الذنب؛ بل يكره ذنبه، ويجاهد نفسه، ويأخذ بالأسباب التي تعينه، فإذا غلبته نفسه عاد إلى الله نادماً لا مستهيناً. وبين من يضعف وهو يقاوم، ومن يخطط للذنب معتمداً على توبةٍ لاحقة، فرقٌ في القصد والمسار يعمله الله.

إن المعرفة بأسماء الله لا تبقى في الذهن إذا كانت حية؛ بل تغير طريقة القلب في النظر إلى نفسه. من عرف أن الله الغفور لم يجمل خطيئته، لأنه يعلم أن الله لا تخفى عليه؛ ولم يأس من المغفرة، لأنه يعلم أن ذنبه لا يعجز الله. ومن عرف أن الله التواب لم يجعل تكرار ضعفه نهايةً للرجوع، لكنه لم يتخذ سعة الباب حجةً على الإقامة خارجه. ومن عرف أن الله الرحيم لم يظن أن العلاج في إهانة نفسه حتى تنهار، بل في صدق الندم الذي يردّها إلى العبودية ويعينها على الإصلاح.

وهنا ينبغي التفريق بين الندم الذي يقود إلى الله، والاحتقار الذي يحبس الإنسان عن الطريق. قد يقول المرء بعد الذنب: «أنا لا أستحق أن أرجع»، كأنه يمنح نفسه حكماً ليس

له، ويعلق باباً لم يأذن الله له أن يعلقه. فالعبد لا يتوب لأنه يرى نفسه جديراً بالمغفرة بعمله، بل لأنه محتاجٌ إلى رحمة الله، وقد دعاه الله إلى التوبة. تواضعه أن يعترف بذنبه، ورجاؤه أن يقبل على ربه، وخوفه أن لا يصرّ، وعمله أن يصلح ما استطاع.

ومن أرفع ما يورثه اسم التواب أن يعلم القلب ألا يستكبر عن العودة. فالتناس قد يستنكفون عن الاعتذار إذا طال إصرارهم، وقد يظنون أن الرجوع بعد الخطأ إقرارٌ بالهزيمة، فيمضون في الطريق الباطل كيلا يعترفوا بأنهم أخطؤوا بدايته. أما العبد الذي يعرف ربه، فيعلم أن الرجوع إلى الحق ليس نقصاً في الكرامة؛ بل هو كرامة العبودية. لا يخاف أن يقول: أخطأت، لأن صدقه مع الله أعزّ عليه من صورته أمام الناس.

وحين يشتدّ على المرء ماضيه، أو يخاف أن يثقل ذنبه ميزان قلبه، لا يطلب منه القرآن أن ينكر ما فعل، ولا أن ينسى تبعاته، بل يرده إلى الله: الغفور الرحيم، التواب الرحيم. هناك يبدأ الرجاء على أصوله: ليس أمانة كاذباً من الحساب، ولا يأساً كاذباً من الرحمة، بل خوفٌ يوقظ، ورجاءٌ يحمل، وتوبةٌ تسعى إلى الإصلاح.

إن معرفة الله بابٌ من أبواب التوبة؛ فكلما صحّ تصور العبد عن ربه، استقام رجاءه وخوفه. وإذا عرف أن ربه يقبل من رجع إليه، لم تعد خطيئته حجاباً أبدياً بينه وبين الطريق؛ وإذا عرف أن الله يعلم صدقه وخداع نفسه، لم يعد الاستغفار عنده حيلةً لفظية. صار يقف بين يدي الله كما هو: لا ينكر ضعفه، ولا يقدره، ولا يئأس منه؛ ثم يقول: يا رب، أنت الغفور الرحيم، وأنت التواب؛ فاغفر لي، وردني إليك، ولا تكلني إلى نفسي.

## الفصل الخامس

ندمٌ يوقظ القلب، ويأسٌ يطفئه

ليس كل ألمٍ يشعر به الإنسان بعد الذنب توبةً، وليس كل ضيقٍ يصيبه دليلاً على أنه يقترب من الله. قد يندم فيرى موضع الخلل، ثم يدفعه ندمه إلى الاعتراف والاستغفار والإصلاح؛ وقد يستغرق في لوم نفسه حتى لا يعود يرى أمامه إلا صورته المخطئة، فيعجز عن النهوض، ويظن أن ماضيه أغلق عليه المستقبل. وبين الندم الذي يوقظ القلب واليأس الذي يطفئه فرقٌ لا يغيّر الشعور وحده، بل يغيّر الوجهة.

الندم الصادق لا يقول للإنسان: «لقد أخطأت، فلا سبيل لك إلى الخير بعد ذلك». بل يقول: «لقد أخطأت، فلا تترك الخطأ يقودك مرةً أخرى». إنه يفتح عينيه على حقيقة الفعل، ثم يردّه إلى ما ينبغي أن يفعله: أن يستغفر، وأن يتوب، وأن يصلح ما استطاع. أما اليأس فيحبس النظر عند ما مضى، ويجعل الندم دوراناً حول الذات لا طريقاً إلى الله؛ فيبقى صاحبه يجلد نفسه، لكنه لا يردّ حقاً، ولا يقطع سبباً، ولا يغيّر مساراً.

وقد يختلط الأمر على من ظن أن حسن التوبة يقتضي أن يظل يتألم بلا انقطاع، كأن الألم كلما اشتدّ دلّ على الصدق. لكن الندم ليس عبادةً مستقلةً غايتها أن يتعذب الإنسان؛ إنه نقطةٌ تعينه على ترك الذنب. فإذا تحوّل إلى احتقارٍ دائمٍ للنفس، أو إلى اعتقادٍ بأن صاحبه لا يستحق أن يحاول، فقد خرج من موضعه النافع. لا يُطلب من

التائب أن ينسى ما فعل، ولا أن يهون أثره؛ إنما يطلب منه ألا يجعل أثره قيداً يمنعه من الطاعة والإصلاح.

وفي القرآن آية عظيمة تفتح باب الرجاء لمن أسرف على نفسه، مع أنها لا تدعوه إلى البقاء في إسرافه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الزمر: ٥٣]

تبدأ الآية بنداء يردّ المسرفين إلى أصل الصلة: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾. لا تحو هذه النسبة ما ارتكبه، لكنها تمنعهم أن يظنوا أن ذنوبهم قد أخرجتهم من إمكان الرجوع إلى الله. ثم يأتي النهي الصريح: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ فالذنوب، مهما عظم، لا يبيح للعبد أن يحكم على نفسه بما لم يحكم الله به. لكن الآية لا تتوقف عند النهي عن القنوط، بل تتبعها في الآية التالية دعوة إلى الإنابة والإسلام قبل فوات الأوان: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾. فالرجاء الذي يريده القرآن ليس انتظاراً ساكناً، بل رجاء يردّ صاحبه إلى ربه.

ومن هنا نفهم أن الندم يحمل وجهين: وجهاً ينظر إلى الماضي، ليرى الخطأ ويعترف به؛ ووجهاً يتجه إلى المستقبل، ليمنع الخطأ من أن يتكرر، أو لبدأ إصلاح ما ترتب عليه. أما اليأس فإلتفت إلى الماضي وحده، ثم يقرأ حكماً على كل ما سيأتي. يقول صاحبه لنفسه: «أنا فعلت هذا، إذن لا فائدة مني»، كأن الذنب كشف حقيقة نهائية لا تقبل التبدل.

والقرآن يعلم الإنسان أن فعله مسئوليةً يتحملها، لكنه لا يجعله قدرًا أبدياً لا يستطيع أن يتوب منه.

إن قول المرء: «أنا أخطأت» قد يكون بدايةً للصدق؛ أما قوله: «أنا لا أصلح» فليس توبةً، بل تعميمٌ للذنب على النفس كلها. الفعل الذي ارتكبه الإنسان حقيقي، وقد يترتب عليه حقٌ يجب ردّه أو أثرٌ يجب تداركه؛ لكن لا يجوز له أن يجعل خطأه تعريفاً شاملاً لذاته، فيرى كل باب خيراً مغلقاً أمامه. فالعبد ليس بريئاً من مسؤوليته، وليس محكوماً بذنبه إلى الأبد؛ إنه مدعوٌّ إلى أن يواجه ما فعل، وأن يطلب المغفرة، وأن يعمل صالحاً.

ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى بعد ذكر فاحشةٍ أو ظلمٍ للنفس: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾. لم تجعل الآية الذنب آخر ما يُذكر عنهم؛ ذكرت بعده فعلاً آخر: ذكروا الله واستغفروه، ثم وصفتهم بأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون. فالماضي حاضرٌ ليوقظهم، لا ليبتلع حاضرهم كله. والخطيئة تُرى، لكن لا تُمنح الكلمة الأخيرة.

وقد يكون الندم موجعاً، ولا بأس أن يوجع؛ فبعض الألم شاهدٌ على أن القلب لم يرضَ بالذنب. لكن الألم وحده لا يكفي. إذا ظلم المرء إنساناً، فليحمله ندمه على ردّ الحق أو طلب المسامحة بقدر ما يستطيع. وإذا كان الذنب متعلقاً بعبادةٍ تعود به إلى موضع السقوط، فليأخذ من ندمه قراراً عملياً يعده عنها. وإذا أفسد علاقةً أو أضاع أمانةً، فليبحث عن سبيلٍ مشروعٍ لإصلاح ما أفسد. أما أن يبقى أسير الشعور من غير أن يخطو خطوةً نحو الإصلاح، فذلك قد يتعبه من غير أن يعيد إليه ما ضيع.

وفي المقابل، لا ينبغي أن يستعمل الإنسان دعوة الرجاء كي يفرّ من مواجهة تبعات أفعاله. فقولنا إن باب الله مفتوح لا يعني أن حقوق الناس تسقط، ولا أن الأذى يصير أمراً هيناً، ولا أن المغفرة تُطلب باللسان مع الإصرار على الظلم. الرجاء يخلّص العبد من القنوط، لكنه لا يخلّصه من المسؤولية. بل لعلّ من أصدق علامات الرجوع أن يقبل المرء أن يصلح ما يستطيع، ولو كان الإصلاح ثقيلاً على كبريائه، وأن يعترف لمن ظلمه بحقه، ولو لم يعد قادراً على محو ما جرى.

والندم الصادق لا يطلب من الإنسان أن يحتقر نفسه؛ يطلب منه أن يحترم الحق الذي خالفه. والفرق بين الأمرين كبير: احتقار النفس قد يشلّها، أما تعظيم الحق فيردّها إلى الصواب. ليس المقصود أن ينسى العبد ذنبه نسيان الغافل، بل أن يتذكره تذكّر المتعلم: فيحذر من أسبابه، ويتواضع لربه، ويرحم غيره ممن ابتلي بما ابتلي به، ولا يغترّ بطاعةٍ ولا ييأس بعد معصية.

حين يستغفر الإنسان، فليقل في قلبه: لست أبرئ نفسي، ولست أقطع رجائي. أعترف بما فعلت، وأطلب المغفرة، وأبدأ بما أستطيع من إصلاح. قد يبقى الندم زمناً، وقد يتأخر شعور الراحة، لكن صدق الطريق لا يُقاس بزوال الألم سريعاً؛ يُقاس بوجهة القلب وما يفعله العبد حين يعرف خطأه. ومن تاب، فليس مطالباً أن يعيش إلى الأبد في محكمة الماضي؛ بل أن يأخذ منها ما يردعه، ثم يمضي في طاعة الله.

وهكذا يصير الندم مصباحاً لا سجنًا: يكشف موضع الزلل، ولا يحكم بأن الطريق انتهى؛ يذكرّ العبد بخطئه، ولا يحو عنه نداء ربه؛ يدفعه إلى الاستغفار والإصلاح، ولا يتركه

غارقاً في صورته القديمة. فالخطيئة تستحق أن تُخاف، ورحمة الله تستحق ألا يُقنط منها؛  
وبين الخوف والرجاء يولد التائب من جديد، لا إنساناً لم يخطئ قط، بل إنساناً لم يجعل  
خطأه حاجزاً بينه وبين العودة.

## الفصل السادس

### الاستغفار وإصلاح ما أفسده الذنب

ليس كل ذنبٍ يبقى أثره في قلب صاحبه وحده. قد يخرج من الإنسان إلى مال غيره، أو كرامته، أو أمانته، أو حقٍّ كان ينتظره منه. فإذا استغفر العبد من ظلمٍ وقع على إنسان، لم يكن صدق رجوعه في أن يطلب المغفرة في خلوته فحسب، بل في أن ينظر إلى الأثر الذي تركه فعله: ما الذي أفسده؟ وما الذي يستطيع إصلاحه؟ وأيُّ حقٍّ ينبغي أن يعود إلى صاحبه؟

إن القلب قد يطلب الصفح من الله، ثم يهرب من مواجهة من آذاه؛ لأنه يخشى اعترافاً يجرح كبريائه، أو يظن أن الكلمات بينه وبين الله تكفي لإغلاق ما فتحه بيده. لكن الاستغفار لا يحو واجب العدل، ولا يجعل حقوق الناس تفاصيل هامشية في قصة توبة العبد. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

[النساء: ٥٨]

فالأمانة ليست مالاً مودعاً فحسب؛ إنها كل حقٍّ أوُتمن الإنسان عليه، وكل مسؤوليةٍ أخذها ثم قصر فيها أو خانها. ومن خان أمانةً لا يكفيه أن يتألم من فعلته، بل عليه أن يردّها ما استطاع. ومن أخذ مالاً بغير حق، فليس من تمام التوبة أن يستغفر بلسانه ويبقى

المال في يده. ومن آذى إنساناً بكلمةٍ أو فعل، فليبحث عن السبيل الذي يوقف الأذى ويجبر ما يمكن جبره.

هنا يتجاوز الاستغفار حدود الشعور الداخلي إلى ميدان الأخلاق. فالتدم الذي لا يغيّر علاقة الظالم بالمظلوم قد يظل ناقص الأثر؛ إذ يمكن للمرء أن يبكي على خطئه، ثم يواصل الانتفاع بنتيجته. أما التوبة فتسأله أن ينظر إلى من وقع عليه الضرر، لا إلى ألمه هو وحده. قد يكون المتأذى أفقر منه قوةً، أو أعجز عن المطالبة بحقه، أو صامتاً لا يعني صمته أنه رضي. والعبد الذي يخاف الله لا يقيس الظلم بمقدار ما استطاع المظلوم أن يردّ به، بل ينظر إلى الحق الذي ضيّعه.

وقد جاء في الحديث تحذيرٌ شديدٌ لمن ظلم أخاه في عرضه أو شيءٍ من حقه، ودعوةٌ إلى استحلاله في الدنيا قبل يومٍ لا يكون فيه دينارٌ ولا درهم؛ إذ تؤخذ من حسنات الظالم بقدر مظلمته. ليس المقصود أن تتحول التوبة إلى فزعٍ يأس، بل أن توقف الإنسان قبل فوات زمن الإصلاح. ففي الدنيا يمكن ردّ المال، وطلب العفو، وتصحيح الكذب، ورفع التهمة، والاعتراف بالتقصير. أما الآخرة فليست ميداناً للمساومة؛ هناك تظهر الحقوق على حقيقتها، ولا تنفع المظاهر التي كان الظالم يحتجّ بها.

لكن إصلاح الضرر لا يأتي بصورةٍ واحدةٍ في كل حال. فحق المال قد يردّ إلى صاحبه أو إلى من يقوم مقامه، والأمانة قد تعاد، والاثام الباطل قد يُصحّح حيث أمكن، والتقصير في واجبٍ قد يُستدرك بما يستطيع الإنسان. أما التفاصيل التي تختلف باختلاف

الوقائع والحقوق، فلا تُعالج بوصفةٍ واحدة تُلقى على كل الناس؛ فالمهم أن يصدق العبد في قصد الإصلاح، وألا يتخذ اختلاف الوسائل ذريعةً إلى ترك الحق.

وقد تكون أصعب خطوةٍ في التوبة أن يقول المرء لمن ظلمه: أخطأتُ في حقك. فاللسان الذي اعتاد التبرير يثقل عليه الاعتراف، والنفس التي بنت صورتها أمام الناس على الصواب تخاف أن تهدم جزءاً منها بكلمة صادقة. لكنها حين تعترف لا تفقد كرامتها؛ بل تستعيد ميزانها. فالكرامة ليست أن يبقى الإنسان مصنوعاً من كل اعتذار، وإنما أن يخضع للحق حين يتبين له، وألا يجعل كبرياه أثقل في قلبه من مظلمة أخيه.

والاعتذار لا ينبغي أن يتحول إلى وسيلةٍ لطلب الراحة على حساب المجني عليه. قد يعتذر المرء لئيسكت ضميره، ثم يغضب إذا لم يُسامحه الآخر فوراً؛ كأن المظلوم مطالبٌ بأن يمنح الصفح بالسرعة التي تناسب شعور المعتذر. لكن الاعتذار الصادق لا يفرض على المتأذي زمناً للنسيان، ولا يشترط أن يعود كل شيء كما كان. إنه اعترافٌ بالخطأ، ومحاولةٌ لردّ الحق، وقبولٌ بأن أثر الفعل قد يحتاج إلى وقتٍ حتى يخف، وأن للمظلوم حقاً في أن يعبر عن ألمه.

وليس إصلاح ما أفسده الذنب مقصوداً على الاعتذار. قد يكون الإصلاح أن توقف أثراً مستمراً: إشاعة ما زالت تتناقلها الألسن، أو مآلاً لا يزال محبوساً عن صاحبه، أو وعداً يترتب عليه انتظار، أو علاقةً أفسدتها خيانة. وقد يكون أن تكفّ عن استغلال ضعف إنسانٍ لا يستطيع مواجهتك، أو أن تعيد إليه الاختيار الذي سلبته منه. فالتوبة لا تسأل فقط: «هل ندمت؟» بل تسأل أيضاً: «هل توقّف الظلم؟ وهل عاد الحق إلى أهله؟»

ومن أخفى ما في هذا الفصل أن بعض الناس يطلب المغفرة عن أفعالهم، لكنهم لا يطلبون إصلاحاً لما صنعت أفعالهم في نفوس الآخرين. يريدون أن يُغفر لهم، لكنهم لا يريدون أن يروا أثرهم. كأنهم يودّون لو أن المظلوم يحو الألم حتى لا يضطروا إلى مواجهته. غير أن العبد لا يملك أن يأمر قلباً آخر بالنسيان، ولا أن يحدد للمجروح متى يتعافى. ما يملكه هو أن يكفّ الأذى، وأن يردّ ما يستطيع، وأن يصدق في الاستغفار، وأن يترك لله ما لا يملكه من قلوب الناس وعواقب الأمور.

ولا يعني ذلك أن يظل التائب حبيس الماضي إلى الأبد؛ فالإصلاح ليس عقوبةً لا تنتهي، ولا دعوةً إلى كراهية النفس. إنما هو وفاءٌ للحق بحسب القدرة. من ردّ ما وجب عليه، واعتذر حيث كان الاعتذار إصلاحاً، وترك الظلم، وعزم ألا يعود، فليمض في طاعة الله راجياً مغفرته، لا معجباً بما فعل، ولا مقيماً في احتقار ذاته. فالهدف أن يعود الإنسان إلى العدل، لا أن يبقى أسيراً لصورة ظلمه.

وهكذا يصبح الاستغفار أوسع من كلمة تُقال عند انفراد العبد بنفسه. إنه سؤالٌ للمغفرة، واستيقاظٌ للمسؤولية، وبدءٌ لعملٍ قد يكون شاقاً لكنه يردّ الحياة إلى ميزانها. فإن كان الذنب بين العبد وربّه، رجع إليه تائباً مستغفراً؛ وإن تعدّى إلى حق إنسان، لم يجعل دعاءه حجاباً بينه وبين ذلك الحق. فالاستغفار يرفع القلب إلى الله، والإصلاح يعيد اليد إلى موضع الأمانة؛ وباجتماعهما يخرج التائب من دائرة الدم المغلق إلى طريقٍ يرى فيه أثر فعله، ويعمل على تداركه، ثم يرجو رحمة الله.

## الفصل السابع

حين نكرر العثرة: كيف يعود العبد من جديد؟

من أشد ما يثقل على القلب أن يتوب من ذنبٍ، ثم يجد نفسه قد عاد إليه. كان يظن أن الندم الأول سيقطع الطريق، وأن العزم الذي شعر به سيحرسه إلى الأبد؛ ثم جاءت ساعة ضعف، أو عاد إلى صحبةٍ قديمة، أو فتحت له غفلته باباً حسب أنه أغلقه. عندئذ لا يكون الألم في الذنب وحده، بل في السؤال الذي يتبعه: أكنت صادقاً حين تبت؟ وهل بقي لي أن أرجع بعد أن رجعت ثم عدت؟

هذا السؤال قد يكون بداية محاسبةٍ نافعة، وقد يصير باباً إلى اليأس. فإن حمل العبد على أن يفهم أسباب عثرته، ويجدد توبته، ويغير ما كان يهين له الوقوع، كان أماً يوقظه. وإن أقنعه أن توبته لا قيمة لها، وأن العودة لم تعد ممكنة، صار قنوطاً يضيف إلى العثرة سقوطاً آخر.

والإنسان لا يملك أن ينظر إلى السرائر ليحكم حكماً قاطعاً على صدق أحدٍ أو كذبه. قد يعزم المرء في لحظة توبته عزماً صادقاً على ترك الذنب، ثم تضعف نفسه بعد ذلك؛ ووقوعه اللاحق لا يتيح لنا أن نعلم ما كان في قلبه ساعة رجوعه الأولى. ما يعمله هو حاله الآن: لقد عاد إلى ما ندم عليه، فعليه أن يجدد الندم، ويستغفر، ويترك الذنب، ويستعين بالله على مقاومته. لا يبرر عودته، ولا يحكم على ماضيه بما لا يعمله، بل يصدق في حاضره.

فالتوبة ليست عقدًا يوقعه الإنسان مع نفسه ثم يضمن ألا تزل قدمه بعدها، وليست مشهداً وجدانياً يعفيه من أسباب الثبات. قد يحزن بصدق، ويستغفر بحرارة، ثم يعود إلى الموضع نفسه الذي أضعفه؛ إلى الخلوة التي يطول فيها شروده، أو العلاقة التي تجرّه إلى الخطأ، أو ساعة الفراغ التي لا يملؤها بما ينفعه. فإذا كرر الوعود نفسها من غير أن يغيّر شيئاً في الطريق المؤدي إلى الذنب، فليسأل نفسه بصدق: ما الذي لم أفهمه بعد عن ضعفي؟ وأي بابٍ ما زلت أتركه مفتوحاً؟

أحياناً يتعامل الإنسان مع الذنب كأنه حادثٌ منفصل عن يومه كله، ثم يفاجأ بأنه يتكرر. لكنه قد يكون ثمرة سلسلة تبدأ قبل لحظة السقوط بزمان: تساهلٌ صغير، ثم تعرّضٌ متكرر، ثم استرسالٌ في الخاطر، ثم اقترابٌ من السبب، ثم ضعفٌ كان يمكن تداركه في بدايته. ومن فقه التوبة أن يتعلم المرء رؤية أول الخطيئة، لا أن ينتظر حتى يشتدّ الحبل حوله. فلا استغفار يرده إلى الله بعد الخطأ، لكنه يعلمه أيضاً أن يستعين بالله قبل أن تتجمع أسباب الخطأ من جديد.

وهنا يتحول الندم من شعورٍ يستهلك صاحبه إلى بصيرةٍ تعينه. لا يكتفي بأن يقول: «لن أفعل ذلك مرة أخرى»، بل يسأل: ماذا ينبغي أن يتغير كي لا أعود إلى الطريق ذاته؟ قد يحتاج إلى الابتعاد عن سببٍ معلوم، أو أن يملأ وقتاً كان يتركه للغفلة، أو أن يطلب العون من شخصٍ أمين، أو أن يتعلم كيف يقطع الخاطر قبل أن يستحيل فعلاً. وهذه الأسباب لا تمنح أحداً عصمةً من الخطأ، لكنها علامةٌ على أن التوبة لم تبقَ كلاماً في النفس.

ويحذر التائب من حيلتين متقابلتين. الأولى أن يهون عودته، فيقول: «سأستغفر لاحقاً»، كأن المغفرة موعدٌ يحدده متى شاء. والثانية أن يضحّمها حتى يقنط، فيقول: «لقد انتهى أمري». كلاهما يعطل الرجوع: الأول يستخفّ بالخطر، والثاني يستسلم له. أما القلب الحي فيعرف قبح ما فعل، ويعرف أن الله فتح لعباده باب التوبة، فيرجع خائفاً راجياً، لا مطمئناً إلى ذنبه ولا يائساً من ربه.

والتكرار لا يجعل الخطيئة الصغيرة كبيرةً بمجرد حسابِ آلي، لكنه قد يكشف خطراً آخر: أن يضعف استقباح القلب لها، وأن يألّفها حتى لا تعود توقظه. لذلك كان من أخطر آثار الإصرار أن يتحول الذنب من فعلٍ يكرهه صاحبه إلى عادةٍ يبررها، ثم إلى أمرٍ يدافع عنه إذا نُصح. فإذا خاف الإنسان من هذا التحول، فيجعل خوفه دافعاً إلى الرجوع المبكر، لا حجةً على أن قلبه مات. فالذي يتألم من بعده ويريد العودة، عليه أن يأخذ هذا الألم إلى باب الله، وأن يحوله إلى توبةٍ وعمل.

وقد يكون من رحمة الله بالبعد أن تنكشف له هشاشته فيرى أنه لا يملك قلبه كما كان يظن، وأن تكرار العثرة يدعو إلى تواضعٍ أعمق، واستعانةٍ أصدق، وحذرٍ أكبر من أسباب الغفلة. لكن لا ينبغي أن تنعمد الذنب طمعاً في حكمةٍ تنوهمها؛ فليس لأحد أن يختار المعصية ليختبر مغفرة الله. إنما إذا وقع فيها، لم يتركها تقوده إلى اليأس، بل جعلها سبباً لتوبةٍ أكثر صدقاً ومعرفةً بالنفس.

ومن الخطأ أن ينتظر الإنسان حتى يشعر بكّال الرغبة في التوبة. قد يبقى في قلبه تعلقٌ بالذنب، وقد يخاصمه الهوى، وقد لا يجد من نفسه تلك القوة التي تمنحه يقيناً بأنه لن

يضعف أبداً. لكنه يستطيع أن يبدأ بما أمره الله به الآن: يترك ما يقدر عليه، ويطلب العون، ويتبعد عن السبب، ويستغفر. لا يشترط أن يملك ضمان المستقبل كي يصدق في خطوة الحاضر. يكفيه ألا يتخذ ضعفه مبرراً، وألا يكف عن المجاهدة لأنه لا يضمن النصر في كل مرة.

إن التوبة المتجددة ليست إذناً بالتكرار؛ إنها رفض لأن تكون الخطيئة آخر كلمة. وكل عودة صادقة تحتاج إلى أن تكون أعمق من سابقتها: اعترافٌ أوضح، واستعانةٌ أكبر، وفهمٌ أدق للأسباب، وحرصٌ أشد على قطع الطريق إلى المعصية. أما إذا ظل المرء يكرر الندم نفسه، ويحفظ الوعود نفسها، ويعود إلى الأسباب نفسها، فليعلم أن الاستغفار يدعوه إلى أكثر من البكاء؛ يدعوه إلى أن يتعلم كيف يحرس قلبه وحياته.

فإذا عثرت بعد توبة، فلا تكذب على نفسك فتقول إن شيئاً لم يحدث، ولا تكذب على الله فتجعل استغفارك غطاءً لرضاك بالذنب. قل: أخطأت، وأنا مسؤولٌ عما فعلت، وأحتاج إلى مغفرتك وعونك. ثم قم بما تستطيع من إصلاح، وابتعد عن الباب الذي دخلت منه، ولا تجعل عثرتك سبباً لترك الطريق كله.

ليس الفوز أن يزعم الإنسان أنه لم يضعف قط؛ إنما أن يبقى قلبه عارفاً إلى أين يعود إذا ضعف. قد تكرر العثرة، لكن لا يلزم أن يتكرر معها التبرير واليأس. فالعبد إذا ذكر الله واستغفره ثم نهض، لم يحُ وقوع الذنب، لكنه منع الذنب من أن يستولي على بقية حكايته.

## الفصل الثامن

### استغفار الأنبياء: كمال العبودية وصدق الافتقار

حين يتأمل الإنسان استغفار الأنبياء، قد يتبادر إلى ذهنه سؤالٌ يحتاج إلى تحرير: كيف يستغفر من اصطفاهم الله لهداية خلقه؟ وهل الاستغفار دليل نقصٍ في مقامهم؟ إن السؤال إذا ترك بلا بيان قد يدفع إلى أحد فهمين خاطئين: أن يُجعل الاستغفار إقراراً بما لا يثبت له الوحي، أو أن يُفرغ من معناه حتى يصير مجرد لفظٍ لا يكشف شيئاً عن صلة النبي بربه.

والأقرب إلى أدب القرآن أن نقف عند ما أخبرنا به، من غير أن نحمل قصص الأنبياء ما لم تدل عليه، ومن غير أن نحجب عن أنفسنا ما فيها من معاني الرجوع والافتقار. فالقرآن يورد دعاءهم واستغفارهم وإنابتهم؛ وفي هذا تعليمٌ للإنسان أن علو المنزلة لا يعني الاستغناء عن الله، وأن كمال العبودية يزداد ظهوراً حين يعرف العبد فقره إلى ربه.

قال موسى عليه السلام بعد أن وقع ما وقع منه:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾

[القصص: ١٦]

توقف عند ترتيب الكلمات: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، ثم ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾. لا إغراق في وصف الذات، ولا محاولة لصرف النظر عن الفعل، ولا إقامةً طويلةً في تبرير ما وقع؛ اعترافٌ

واضح، ثم رجوعُ إلى الله. لقد رأى موسى عليه السلام الفعل في أثره على نفسه، وأسرع إلى ربه، فغفر له، كما قال تعالى في تمام الآية: ﴿فَغْفِرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

في هذه الآية يلوح وجهٌ من وجوه الاستغفار: أن العبد لا يجعل منزلته السابقة حاجزاً يمنعُه من الاعتراف، ولا معرفته بالله سبباً لليأس منه. بل كلما صدق في معرفة ربه، عرف أن لا ملجأ له إلا إليه. وموسى عليه السلام لا يقدم لنا درساً في تبرير الخطأ، بل في سرعة الرجوع، وفي أن الاعتراف الصادق لا ينقص العبد؛ إنما يردّه إلى موضعه الصحيح: عبدٌ يخطئ، وربٌّ يغفر ويرحم.

وفي قصة آدم وزوجه، جاء الاعتراف بصيغةٍ أخرى:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣]

هنا لا يقف الدعاء عند طلب المغفرة؛ بل يضم إليها الرحمة، ويقرّ بأن النجاة لا تكون بإنكار ما حدث، ولا بالاعتماد على النفس. لقد أظهرها فقرهما إلى الله، وأنهما لا يملكان لأنفسهما ما يطلبانه منه. وهكذا يصبح الاستغفار كلمةً تعرف بها النفس ضعفها، لا لكي تُحطمها، بل لكي تردّها إلى من بيده المغفرة والرحمة.

وفي قصة داود عليه السلام يصف القرآن ما جرى بقوله:

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

[ص: ٢٤]

يجمع هذا التعبير بين الاستغفار والإنابة: طلب المغفرة، والرجوع إلى الله. والإنابة أوسع من لحظة اللفظ؛ إنها توجه القلب إلى ربه، وترك الإعراض، والعودة إلى ميزان العبودية. ثم يخبرنا القرآن أن الله غفر له، وأن له عنده زلفى وحسن مآب. فلا تنتهي القصة عند لحظة الانكسار، بل تفتح على قربٍ وكرامةٍ ومصيرٍ حسن.

ومن أعظم ما يوقظ القلب في هذا الباب أن النبي ﷺ، وهو المبلغ عن الله والقُدوة لأُمته، كان يكثر من الاستغفار والتوبة. جاء عنه في صحيح البخاري أنه قال إنه يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، وجاء في صحيح مسلم ذكر استغفاره مئة مرة في اليوم.

لا ينبغي أن تُؤخذ هذه الأحاديث ذريعةً إلى تحيل ذنبٍ لم يذكره الوحي، ولا أن تُحتزل كثرة استغفاره ﷺ في تفسيرٍ واحدٍ يُغلق بقية المعاني. لكنها تعلمنا بوضوح أن الاستغفار ليس عادةً لا يحتاج إليها إلا من ابتلي بمعصية ظاهرة، ولا كلمة لا تُقال إلا بعد السقوط. إنه عبادةٌ تتصل بمعرفة الله، ولشكر نعمه، وباستحضار تقصير العبد في حق ربه، وبالتجدد الدائم في مقام العبودية.

إن الإنسان يظن أحياناً أن الاستغفار يكشف عن ماضيه وحده، لكن استغفار النبي ﷺ يعلمه أن الاستغفار أيضاً رفيق الطريق. ليس كل من استغفر يستحضر خطيئةً بعينها، وليس كل استغفارٍ اعترافاً بذنبٍ مخصوص؛ قد يكون دوام افتقارٍ إلى الله، أو سؤالاً للقبول، أو توبةً وتجديداً للعهد، أو اقتداءً بأمر الله لنبيه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

وهذه الآية الأخيرة تكشف سعة الاستغفار في حياة المؤمن. فقد تأتي في مقام تمام النصر والفتح، لا في مشهد انكسارٍ ظاهر؛ فتعلّم أن النجاح نفسه لا يخرج العبد من حاجته إلى الله. حين يرى الإنسان ثمرة سعيه، قد ينسى من وقّعه، أو يعتر بما أنجز، أو ينسب الفضل إلى قوته وحدها. أما التسبيح والاستغفار فيحفظان قلبه من أن تتحول النعمة إلى جباب: يسبّح بحمد ربه، ويستغفره، ويعلم أن تمام الأمر من فضله.

والأنبياء في هذه المواطن ليسوا حكاياتٍ بعيدةً عن الإنسان؛ إنهم يعلمونه كيف يتعامل مع لحظة الخطأ: لا يهرب من الحقيقة، ولا يتكبر عن الرجوع، ولا ينسى أن له رباً يغفر. ويعلمونه كذلك أن رفعة الإنسان لا تقوم على ادعاء العصمة لنفسه، بل على صدق عبوديته لله، وعلى عودته إليه حين يعرف أنه محتاج.

ولعل في ملازمة الاستغفار لحياة النبي ﷺ معنىً يفتح للقلب أفقا واسعا: أن العبودية ليست مرحلةً يتجاوزها المرء حين يستقيم، بل هي المقام الذي يزداد به قرباً كلما عرف ربه أكثر. لا يقول العبد: لقد تحسّنت فلم أعد محتاجاً إلى المغفرة؛ بل يقول: كلما عرفت فضلك، رأيت تقصيري؛ وكلما وهبني من الخير، ازدددت افتقاراً إليك.

لهذا لا يكون الاستغفار دليلاً على أن صاحبه لا خير فيه، كما لا يكون كثرة العمل دليلاً على أن صاحبه استغنى عن الله. قد يكون الاستغفار علامة حياة القلب، ومعرفة ربه، وحذره من العجب، وحرصه على أن يلقي الله مستغفراً لا مدّعياً. فالعبد لا يبلغ منزلةً تسقط عنه حاجته، ولا يعرف طريقاً يغنيه عن رحمة الله؛ وكلما صفا قلبه، ازداد فقهاً بأنه لا ينجو إلا بفضل ربه.

## الفصل التاسع

### من غبار الماضي إلى نور العبرة

لا يحو الاستغفار ما وقع من ذاكرة الإنسان، ولا يعيد الزمن إلى الوراء حتى يصبح الأذى كأنه لم يكن. لكنه يستطيع أن يغيّر موقع الماضي في القلب: ينتقل به من سجن يُعيد صاحبه إلى العجز كلها تذكّر، إلى موضع يرى فيه عاقبة الفعل، ويعرف ما ينبغي إصلاحه، ويتعلم كيف يمضي دون أن ينكر ما مضى.

في قصة يوسف عليه السلام، يعود الماضي بعد أعوام طويلة إلى صورة لم يكن إخوته قادرين على تجاوزها بالكلام المراوغ. لقد صنعوا فعلتهم، ثم دار بهم الزمن حتى صاروا أمام أبيهم يعترفون بها. قالوا:

﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾

[يوسف: ٩٧]

لم يقولوا: كنا ضحايا الظروف، أو إن ما جرى كان أمراً يسيراً، أو إن السنين قد مضت فلا داعي لذكره. سمّوا ما فعلوه ذنباً، واعترفوا بأنهم كانوا خاطئين. وربما كان أشق ما في هذه الكلمات أن تخرج من طال به الزمن وهو يخفي الحقيقة؛ فالاعتراف لا يستعيد الماضي، لكنه يوقف الكذب الذي كان يحرسه.

كان جواب يعقوب عليه السلام:

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[يوسف: ٩٨]

فوجههم إلى الله، ولم يجعل ألم الأسرة باباً لليأس من رحمته. وفي هذا مشهد إنساني بالغ الرقة: أبناء يعودون بندهم، وأب يسمع اعترافهم بعد سنواتٍ من الفقد والحزن، ثم يعد أن يستغفر لهم ربّه. لم تُلَاشِ الذاكرة في لحظة، ولم تُنَحِ آثار ما حدث بمجرد طلب الاستغفار؛ لكن الحقيقة ظهرت، والقلوب بدأت تتحرك من موضع الإخفاء إلى موضع الرجوع.

إن بعض الناس يظن أن التوبة تقتضي أن ينسى ما فعل، أو أن ينسى ما فعل به. لكن النسيان ليس شرطاً للمصدق، بل قد تكون الذاكرة نفسها موضعاً للتوبة والعبرة. من ظلم غيره قد يحتاج أن يتذكر أثر ظلمه كيلا يكرره، لا كي يظل أسير احتقار نفسه. ومن ظُلم قد يحتاج أن يتذكر ما حدث ليحمي نفسه ويعرف حدود العلاقة، لا كي يصبح جرحه الاسم الوحيد لحياته.

فالذاكرة ليست صندوقاً مغلقاً للماضي؛ إنها نافذة يطل منها الإنسان على حاضره. قد يعود إليه الذنب كلها خلا بنفسه، فيسمع في داخله صوتاً يقول: «لقد انتهى كل شيء». وقد يعود إليه ليقول: «لقد عرفتُ الآن أين أخطأت، وما الذي يجب أن أتجنبه، وإلى من أرجع إذا ضعفت». الحدث واحدٌ في الذاكرة، لكن القلب يقرأه على ضوء مختلف. والاستغفار لا يزيّف الصورة، بل يمنعها من أن تحجب كل ما عداها: رحمة الله، وإمكان التوبة، وواجب الإصلاح.

ولذلك ينبغي للإنسان أن يفرّق بين التذكّر الذي يبني والتذكّر الذي يستنزف. التذكّر البناء يثمر مسؤولية: يردّ حقاً، أو يقطع سبباً، أو يعيد المرء إلى أدبه مع الله والناس. أما الدوران المؤلم حول الماضي من غير خطوةٍ إلى الأمام، فقد يجعل الندم شكلاً آخر من الانشغال بالنفس؛ ينظر المرء إلى خطئه آلاف المرات، لكنه لا يفعل ما يستطيع لتداركه.

وقد يتلى الإنسان بذاكِرةٍ تحمل أذى الآخرين إليه، لا أخطاءه هو وحدها. وهنا لا يكون الاستغفار دعوةً إلى أن يقول للظلم: انسَ ما حدث، ولا أن يفرض عليه مصالحةً عاجلة. فالذي أخطأ مسؤولٌ عن التوبة والإصلاح بقدر استطاعته، والذي تأذى ليس مطالباً بأن ينكر وجعه كي يثبت صفاء قلبه. لكلٍّ منهما طريقه إلى الله: هذا يرجع عن الظلم ويطلب المغفرة، وذاك يطلب من الله العون والعدل والشفاء. وقد يجتمع الصفح والإصلاح إذا تهيأت أسبابهما، وقد يحتاج الألم زمناً طويلاً قبل أن يهدأ؛ والله أعلم بما في الصدور.

وفي قصة يوسف عليه السلام، لا تنتهي الرحلة بمجرد أن ظهر الإخوة في مشهد الندم. فالقرآن يقود القصة إلى لقاءٍ أوسع، تتجاوز فيه الذاكرة القديمة مع تمام النعمة، وينظر يوسف إلى ما مضى نظرةً لا تنكر قسوته، لكنها ترى تدبير الله الذي أحاط به. لا يعني ذلك أن كل جرح يتبدل في الدنيا إلى مشهد مصالحةٍ كامل، ولا أن كل مظلمةٍ تنتهي بالطريقة التي نمتناها؛ لكن القصة تعلمنا أن الماضي لا يملك وحده تفسير الحياة كلها، وأن الإنسان قد يرى في آخر الطريق ما لم يكن يراه في أوله.

ومن أعظم ما يفعله الاستغفار بالذكرة أنه يمنع الذنب من التحول إلى حجة دائمة على صاحبه. لا يقول له: لم تقع منك خطيئة، بل يقول: وقعت، فتب. لا يخبره أن أثر فعله لا يهم، بل يوقظه إلى إصلاحه. لا يطلب منه أن يتظاهر بالقوة، بل يرده إلى الله حين يشعر بضعفه. فإذا تاب، صارت الذاكرة شاهداً يردعه ويهديه، لا قاضياً يحرمه من الرجاء.

وقد يحمل الإنسان في ذاكرته كلمة قالها فأدمت قلباً، أو فرصة ضيّعها، أو أمانة لم يحفظها، أو زمناً مضى في غفلة. ليس كل ما فات يمكن أن يُستعاد، لكن ما بقي من العمر ما زال قابلاً لأن يتغير. يستطيع أن يصلح ما يمكن إصلاحه، وأن يطلب العفو من آذاه، وأن يبدل عاداته، وأن يستغفر الله عما لا يستطيع رده. وهذا ليس محوً للماضي، بل وفاءً للحقيقة ورجوعاً إلى الله.

إن الماضي إذا ترك بلا توبة قد يتراكم غباره على القلب، وإذا ووجه بالاستغفار والإصلاح صار موضعاً للعبرة. ليس على العبد أن يدّعي أنه لم يخطئ، ولا أن يكرر خطأه لأنه أخطأ من قبل؛ عليه أن يذكر، ويستغفر، ويصلح، ثم يمضي. فالذاكرة التي لا يقودها الندم إلى عملٍ قد تتحول إلى مرارة، والذاكرة التي يقودها الاستغفار تصبح معلّمة لا سبّانة.

وحين يعود الذنب إلى خاطر التائب، فليعد معه معنى الرجوع أيضاً: نعم، كان ما حدث خطأً؛ نعم، لا أستطيع أن أسترده الزمن؛ لكنني أستطيع أن أستغفر، وأن أصلح ما بقي ممكناً، وألا أسمح للماضي أن يصنع مني إنساناً يأساً أو مكرراً لخطئه. وهكذا يخرج

الاستغفار من لحظة النطق إلى رحلة الذاكرة: يطهرها من الإنكار، ويخفف سلطانها،  
ويحوّل ما فيها من ألم إلى بصيرةٍ تمهّد طريق العودة.

## الفصل العاشر

### الاستغفار والبركة: وعد الله بعيداً عن الحسابات الآلية

حين يقرأ الإنسان قول نوح عليه السلام لقومه، يرى الاستغفار متصلاً بأبوابٍ من الخير يفتحها الله:

﴿قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

[نوح: ١٠-١٢]

تفتح هذه الآيات أفقاً واسعاً في فهم الصلة بين الاستغفار والحياة: فليس الدين انفضالاً عن الأرض، ولا العبادة انسحاباً من أسباب العمران؛ إنما يردّ الوحي الإنسان إلى ربه، ويهديه إلى الطريق الذي تصلح به حياته، ويذكّره أن الرزق والخصب والذرية والنعمة كلها من فضل الله. لكن هذا المعنى لا يُقرأ على أنه صفة مضمونة النتائج، ولا معادلةً حسابية تقول إن كل من أكثر من الاستغفار نال الصورة الدنيوية نفسها من المال والأولاد والرخاء.

فالأيات ليست تعليماتٍ مقتطعةً من سياقها، ولا وعداً يُعلق على عددٍ يكرره المرء بلسانه كيفما اتفق. إنها جزءٌ من خطابٍ نبويٍّ دعا قومه إلى عبادة الله والاستغفار له، بعد أن رأى منهم إعراضاً طويلاً. ففي النداء دعوةً إلى تغيير الوجهة: أن يتركوا ما هم عليه من

الغفلة والعصيان، وأن يرجعوا إلى ربهم. ثم ذكرت آثاراً من الخير الذي يفيض به الله على عباده؛ كأن الاستغفار يعيد الإنسان إلى علاقةٍ صحيحةٍ بمصدر الرزق والرحمة والتدبير.

وهنا ينبغي أن نُميّز بين الوعد الإلهي وبين الطريقة التي يحوّل بها الإنسان الوعد إلى حسابٍ آلي. فالله يعدّ من يشاء بما يشاء، ويرزق بحكمته، وقد يتبلى عبده مع صدقه، وقد يوسّع عليه، وقد يدّخر له من الخير ما لا تراه عينه في الدنيا. أما العبد، فليس له أن يجعل الاستغفار وسيلةً يساوم بها الله على رزقٍ محدد، ثم يظن أن تأخر ما يريد دليلٌ على أن وعد الله لم يتحقق أو أن توبته لم تُقبل.

والبركة أوسع من وفرة المال، وإن كان المال رزقاً من الله. قد يُبارك للإنسان في القليل فيكفيه، ويجعل فيه نفعاً يتجاوز حجمه؛ وقد يملك الكثير ولا يجد فيه سكينةً ولا نفعاً. وقد تكون البركة في أمنٍ، أو عافيةٍ، أو صلاحٍ في الأهل، أو انشراحٍ بعد ضيقٍ، أو حكمةٍ تصرف عن الإنسان ما يضره، أو قوةٍ على أداء حقٍّ كان يعجز عنه. وليست هذه المعاني بدائلَ نلجأ إليها إذا لم تأتنا الصورة التي اشتيناهها، بل هي وجوهٌ حقيقية للنعم قد لا يلتفت إليها القلب إذا حصر الرزق في مظهرٍ واحد.

إن الاستغفار لا يعزل المرء عن الأخذ بالأسباب. من طلب رزقاً يسعى إليه، ومن أراد أن يحفظ نعمةً صانها، ومن أراد بيتاً صالحاً عمل بأسباب الصلاح. لا يقول الاستغفار للإنسان: اترك الأرض وانتظر أن تمطر عليك الثمار؛ بل يحرره من وهم الاستغناء عن الله، ويظهر قصده من الطغيان، ويعيده إلى العدل في سعيه. فالذي يستغفر

ثم يظلم في تجارته، أو يخون الأمانة، أو يستهين بحقوق الناس، لم يفهم بعد أن الرجوع إلى الله ينبغي أن يغيّر صلته بمن حوله.

ومن هنا نفهم أن الاستغفار لا يطلب من الإنسان أن يكون متلقياً سلبياً للبركة، بل يدعو إلى أن يصير أهلاً لحمل النعمة: يحفظ الأمانة، ويؤدي الحق، ويشكر المنعم، ولا يجعل سعة الرزق سبباً للاستعلاء. فكم من نعمة إذا انفصلت عن الشكر صارت فتنه، وكم من توسعة إذا لم تصحبها التقوى زادت صاحبها بُعداً. إن الخير الذي تعد به الآيات ليس مجرد كثرة في الممتلكات؛ إنه خير يُطلب من الله، ويُستقبل بالعبودية، ويُصان بالعدل.

والاستغفار نفسه بركة قبل أن يرى الإنسان أثره في الخارج. أن يستيقظ القلب من غفلته، وأن يتوقف عن الإصرار، وأن يعود إلى الدعاء بعد طول انقطاع، وأن يبدأ صاحبه بردّ الحقوق، كل ذلك خير يهيئ النفس لخيرٍ أوسع. وقد لا يرى التائب نتيجة رجوعه فوراً في الرزق أو الظروف، لكنه قد يرى أثراً آخر: أن صار أصدق في عمله، وأقل ظلماً، وأقدر على ضبط رغبته، وأقرب إلى شكر ما في يده. هذه ليست دعوة إلى الاكتفاء بالمشاعر بدل الرزق؛ إنها دعوة إلى ألا نغفل عن أبواب البركة التي تبدأ بإصلاح الإنسان نفسه.

وليس كل تأخر في مطلب عقوبة، كما أن كل اتساع في الدنيا ليس علامة رضا. هذه قاعدة تحفظ قلب المؤمن من قراءة الأقدار قراءة متعجلة. فقد يستغفر العبد ويصبر على ضيقٍ لم ينكشف سببه، وقد يبتل وهو أقرب إلى الله من زمن الرخاء، وقد تُصرف عنه نعمة كان يطلبها رحمةً به. لا يملك الإنسان أن يحيط بحكمة الله في كل قدر، لكنه

يستطيع أن يثق بأن الاستغفار عبادةٌ مأمورةٌ بها، لا وسيلةٌ يختبر بها ربه أو يحاكم بها حكمته.

وحين يذكر القرآن المطر والمال والبنين والجنات والأنهار، فإنه لا يحول العلاقة بالله إلى سوقٍ يقدم فيه العبد ذكراً ويشترط في مقابله منفعةٌ معلومة. بل يعلم الناس أن أبواب الحياة بيد الله، وأن الرجوع إليه جزءٌ من صلاح الحياة، وأن الإعراض عن الحق يفسد علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالحق. فالاستغفار ليس ثمناً للنعمة، بل عبادةٌ وشكرٌ وعودةٌ، والنعمة فضلٌ من الله، لا دينٌ يفرضه عليه لسان العبد.

وهكذا يفتح الاستغفار للإنسان باباً إلى البركة، لكنه لا يحصر البركة في صورةٍ واحدة، ولا يعد كل فردٍ بالمقدار نفسه وفي التوقيت نفسه. يردّه إلى الله، ويعيد ترتيب سعيه، ويعلمه أن يطلب الخير من واهبه، وأن يشكر إذا أُعطي، ويصبر إذا مُنع، ويظل مستغفراً في الحالين. فإن جاءه المطر حمد الله، وإن أبطأ عنه لم يقطع رجاءه؛ وإن كثرت يده لم ينس حق الله والناس، وإن قلّ ما فيها لم يحسب أن رحمته قد ضاقت.

فالاستغفار ليس مفتاحاً سحرياً لخزائن الدنيا، بل باب عبوديةٍ يردّ القلب إلى الله، ومن هذا الباب يطلب العبد رزقه وبركته وهدايته؛ ساعياً في الأرض، غير متألهٍ لأسبابه، راجياً فضل ربه، عالماً أن الخير قد يأتيه في صورةٍ يعرفها، وقد يأتيه في صورةٍ لم يكن ينتظرها.

## الفصل الحادي عشر

### اللسان الذي يستغفر والقلب الذي يتغير

تبدأ كثيرٌ من أبواب الخير بكلمة. يقول العبد: أستغفر الله، فيتحرك لسانه، ويفتح في قلبه سؤال: ممّ أستغفر؟ وما الذي ينبغي أن أتركه؟ وهل سأعود إلى ما أستغفر منه؟ ليست الكلمة نهاية الطريق، لكنها قد تكون أوله؛ فاللسان يقرع باب المعنى، والقلب هو الذي يدخل منه، ثم تظهر حقيقة الدخول في اختيار الإنسان وعمله.

ولو كان الاستغفار صوتاً لا صلة له بالقلب، لما كان للمعنى كل هذا الحضور في القرآن. فاللسان يستطيع أن يكرر، لكن التكرار وحده لا يضمن أن النفس فهمت ما تقول. قد يجري الاستغفار على الشفتين بينما القلب غافلٌ عن الظلم الذي ارتكبه، أو يطلب المغفرة ثم يحتفظ بما أخذه من حقٍّ لا يملكه، أو يستغفر من عادةٍ لا يزال يهين أسباب العودة إليها. هنا لا تكون المشكلة في حركة اللسان، بل في أن الكلمة لم تُسمع لها أن تبلغ موضع القرار.

لكن ذلك لا يعني أن نحتقر الذكر اللساني أو نؤخره حتى يبلغ القلب كمال الحضور. فالقلب قد يبدأ غافلاً ثم توقظه الكلمة، وقد يثقل عليه الرجوع فيعيّنه اللفظ على تثبيت وجهته. الإنسان لا ينتظر دائماً أن يبلغ الصفاء قبل أن يذكر؛ أحياناً يذكر كي يستعيد شيئاً من صفائه. يقول «أستغفر الله» وهو مشتبك، ثم يعيدها مستحضراً ما فاتته، حتى

يصبح اللفظ تذكيراً للنفس لا مجرد صوتٍ يتكرر. فإذا لم يحضر القلب من المرة الأولى، فليدعوه العبد إلى الحضور، لا أن يترك الذكر لأنه لم يذق أثره كاملاً.

وهنا يظهر التوازن: لا تختزل الاستغفار في حركة اللسان، ولا نشترط على اللسان أن ينتظر قلباً كاملاً الحضور. فالكلمة الصادقة تربي القلب، والقلب الصادق يوجه الكلمة. وكلما كرر العبد الاستغفار، عاد إليه معناه: أطلب المغفرة ممن يعلم ذنبي، وأقرّ أنني محتاجٌ إلى عونه، وأريد أن أرجع إليه. فإذا استقرت هذه المعاني، لم يعد اللسان يردد اللفظ وحده؛ بل صار يذكّر صاحبه بما عليه أن يفعله.

واللسان نفسه أحد المواطن التي تحتاج إلى الاستغفار. قد يستغفر الإنسان من ذنوبٍ يتذكرها، وينسى أن لسانه كان باباً إلى أذى الناس: كلمة جارحة، أو وعدٌ لم يف به، أو خبرٌ نقله بلا تثبت، أو غيبةٌ ألبسها ثوب النصيحة. فلا استغفار هنا لا يكون بزيادة كلمات الثناء على الله مع إبقاء اللسان على عادته، بل بأن يعتاد صاحبه التثبت، وأن يحفظ أعراض الناس، وأن يراجع ما يقول قبل أن يقوله. من استغفر من أذى اللسان ثم عاد إليه بلا مبالاة، لم يمنح استغفاره فرصةً ليصلح ما استغفر منه.

والكلمة التي يكررها الإنسان لا تبقى دائماً منفصلةً عن سلوكه. قد يقول المرء: «أستغفر الله» بعد كلمة قاسية، ثم يتعلم مع الأيام أن يقف قبل أن يجرح، وقد يقولها بعد ظلم، ثم يصبح أسرع إلى الاعتذار؛ وقد يستغفر من الغيبة، فيدرك أن الحديث عن عيوب الآخرين ليس شأناً عابراً في مجالسه. بهذا المعنى، لا تحو الكلمة أثر الذنب وحدها، بل تعيد تربية اللسان حتى لا يظل طريقاً مألوفاً إليه.

وفي المقابل، على القلب أن يحذر من أن يجعل الاستغفار وسيلةً لتخدير الضمير. لا يقول: «أستغفر الله» كي ينسى الحق الذي عليه، ولا كي يتجاوز أثراً لم يُصلحه، ولا كي يطمئن إلى تكرار ما يضرّ به الآخرين. الاستغفار الصادق لا يسكت صوت الحق، بل يجعله أوضح؛ لأن التائب لم يعد يريد أن يخدع نفسه. فإذا ذكرّه ضميره بحق أضعاءه، لم يسارع إلى إسكات ذلك التذكير، بل سأله: ما الذي أستطيع فعله الآن؟

وللقلب في الاستغفار آدابٌ لا تقاس بالصوت العالي ولا بطول الوقوف. منها أن يعرف قدر الذنب من غير تهويلٍ يورث اليأس، وأن يستشعر فضل الله من غير استهانة، وأن يتواضع من غير أن يكره وجوده، وأن يطلب المعونة من غير أن يعفي نفسه من السعي. قد يستغفر العبد خافتاً، ولا يعلم به أحد، لكنه يخرج من خلوته عازماً على ردّ الأمانة؛ وقد يرفع صوته بالاستغفار، ثم لا يتغير من علاقته بالناس شيء. الله يعلم اللسان والقلب وما وراءهما، والناس لا يملكون إلا ظاهراً محدوداً.

ومن أجمل ما في الاستغفار أنه يجمع بين الجهر والخفاء، وبين العبادة الفردية والأثر الاجتماعي. يبدأ في قلبٍ منفردٍ يقرّ بذنبه، ثم يظهر في حياةٍ صارت أعدل لساناً، وأحفظ للأمانة، وأقل ميلاً إلى التبرير. فإذا لم يترك الاستغفار أثراً في معاملة الناس، وجب على صاحبه أن يسأل نفسه عن المعنى الذي بقي بعيداً عنه. ليس كل أثرٍ يظهر فوراً، وليس كل قلبٍ يتغير في يومٍ واحد؛ لكن الكلمة الصادقة تدفع صاحبها إلى أن يراقب نفسه، وأن يصير ألين للحق وأسرع إلى الإصلاح.

ولا ينبغي أن يُطلب من الإنسان أن يسمع في داخله خشوعاً كاملاً في كل مرة يستغفر فيها. فالأيام متفاوت، والنفوس تنشغل، واللسان قد يسبق حضور القلب. لكن العبد يستطيع أن يردّ القلب بلطف: ماذا أطلب من الله؟ ما الذنب الذي أخشى أن أعود إليه؟ ما الخطوة التي أقدر عليها بعد هذا الذكر؟ هكذا يتحول التكرار من عادةٍ لا يعيها صاحبها إلى تمرينٍ على الرجوع، وبصير اللفظ مألوفاً في السمع، ثم عزيزاً في الوجدان، ثم حاضراً عند مواضع الاختيار.

إن اللسان يطلب المغفرة، والقلب يصدق الطلب، والعمل يشهد على أثره. قد لا يستقيم المرء دفعةً واحدة، لكن الاستغفار يعلمه أن يبدأ، وأن يعود إذا تعثر، وألا يجعل لسانه يقول ما لا يريد قلبه أن يفعله. وحين تتقارب الكلمة والنية والعمل، يصبح «أستغفر الله» أكثر من لفظٍ مبارك: يصير عهداً متجدداً بين العبد وربه، يتذكر به ضعفه، ويرجو به مغفرة الله، ويبدأ به إصلاح ما استطاع.

## الفصل الثاني عشر

العمر طريق رجوع: أن يلقي العبد ربّه بقلبٍ أوّاب

لا يُمنح الإنسان عمره دفعةً واحدةً، ثم يُترك له أن يختار متى يبدأ الرجوع؛ إنما تنقضي أيامه وهو يظن أحياناً أن أمامه متسعاً، حتى يفاجئه أن بعض ما أرجأه لم يعد في يده. ولهذا لا يجعل القرآن التوبة أمنيةً مؤجلةً إلى زمنٍ مجهول، ولا يترك الاستغفار لآخر العمر وحده؛ بل يوقظ الإنسان إلى أن كل لحظةٍ يعيشها قد تكون فرصةً للعودة، وأن القلب إذا اعتاد التأجيل ألف أن يؤخر أهم ما يحتاج إليه.

قال تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[المنافقون: ١٠-١١]

في الآية صوتٌ إنسانٍ أدرك متأخراً قيمة ما كان بين يديه. لم يطلب بعد مجيء الموت أن يُمنح عمراً طويلاً؛ سأل ﴿أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، كأن لحظةً واحدةً تكفيه ليفعل ما أخره: أن يتصدق، وأن يكون من الصالحين. غير أن ما يطلبه عند انكشاف الغطاء لم يعد إليه؛ فالوقت الذي كان ميدان عمله صار ماضياً، وما بقي له في الدنيا لا يملكه ليبدأ من جديد.

وهنا لا يضع القرآن الموت أمام الإنسان كي يملأ قلبه بالرعب، بل كي يعلمه قيمة اللحظة قبل فواتها. فالموت ليس فكرةً بعيدةً لا علاقة لها بتفاصيل اليوم؛ إنه الحد الذي يجعل العمر أمانةً، ويجعل الاختيار أثقل من أن يُترك كله لما بعد. والاستغفار من أعظم ما يعيد هذه الحقيقة إلى القلب: أنا لا أملك زمناً غير محدود لأؤجل الاعتراف، ولا أضمن أن أجد غداً الباب نفسه مفتوحاً أمام عملي.

وقد لا يكون التأجيل في صورة قرارٍ صريح: «لن أتوب». كثيراً ما يتخفى في كلماتٍ مألوفة: سأرجع حين أهدأ، حين تتغير ظروفِي، حين أبلغ سنّاً معينة، حين أفرغ من هذه المرحلة، حين تضعف رغبتِي في الذنب. ثم تمضي الأيام، ويصير التأجيل عادةً ترتاح إليها النفس؛ حتى لا يعود الأمر مجرد غفلةٍ عن التوبة، بل اعتماداً على مستقبلٍ لا يملكه صاحبه.

والاستغفار يقطع هذا الوهم. لا يقول للإنسان: غير حياتك كلها في ساعة، ولا يطالبه بما لا يقدر عليه؛ لكنه يدعوه إلى أن يبدأ الآن بما يستطيع. كلمةٌ صادقة، وتركُ خطوةٍ تقربه من الذنب، وردُّ حقٍّ يقدر عليه، وصلاةٌ يعود إليها، واعتذارٌ طال إرجاؤه. ليس المطلوب أن يحمل العبد عمره كله دفعةً واحدة، بل ألا يترك اللحظة الحاضرة تمضي وهو قادرٌ على خطوةٍ نحو الله.

وليس الأواب إنساناً لم يعرف تقلب القلب، بل هو كثير الرجوع إلى الله. يعود إذا غفل، ويستغفر إذا أذنب، ويردّ نفسه إذا انجذبت إلى ما يبعدها. فالرجوع المتكرر لا يعني أن صاحبه يستخف بالعهد؛ بل إن قلبه لا يرضى أن يستقر بعيداً. قد يضعف، لكنه لا

يتخذ ضعفه منزلاً؛ وقد يخطئ، لكنه لا يرضى أن يطول مقامه عند الخطأ. وحين يقال عن عبدٍ إنه أواب، فإن في اللفظ صورةً قلبٍ كلما شرد رده الشوق والخوف والرجاء إلى ربه.

ومن أكبر ما يسرق العمر أن ينتظر الإنسان لحظةً مثاليةً كي يتغير. يظن أن التوبة تحتاج إلى صفاء لا يخالطه تردد، أو إلى رغبة لا يعترضها هوى، أو إلى يقين بأنه لن يضعف بعد اليوم. لكن هذا الانتظار قد يكون ستاراً أيقناً للتأجيل. يبدأ الرجوع بما يقدر عليه العبد وهو ما يزال محتاجاً إلى العون: يستغفر، ويقطع ما استطاع من أسباب المعصية، ويطلب من الله الثبات. ثم يتعلم الطريق في أثناء سيره.

والاستغفار يعلم الإنسان أن ينظر إلى يومه بوصفه أمانة لا كلمةً سائبةً من الوقت. ما الذي ينبغي أن ينتهي اليوم؟ أي حقٍّ أستطيع أن أردّه؟ أي عادةٍ ينبغي أن أبدأ بمقاومتها؟ أي كلمةٍ بقيت في نفسي ولم أقلها لمن يستحق اعتذاري؟ ليس في هذه الأسئلة ما يضمن للهوى طول العمر، لكنها تمنع قلبه من أن يعيش كأن العمر مضمون. فالعبد لا يحتاج إلى أن يعرف موعد أجله ليعرف أن الرجوع لا ينبغي أن يؤجل.

وإذا طال بالإنسان عمره، فلا يجعل طول العمر شهادةً بأن التأجيل آمن. قد يمنحه الله فرصةً بعد فرصة، لكن الفرصة نفسها دعوةٌ إلى الشكر والعمل، لا عذرٌ لمواصلة الإهمال. وإذا قصر ما بقي من عمره في نظره، فلا يظن أن أبواب الخير قد أغلقت كلها؛ فباب التوبة مفتوح ما دام العبد في زمن العمل، وكل لحظة صادقة قد تكون بداية تحول لا يعلم مداه إلا الله.

إن من رحمة الله أن العبد لا يُطلب منه أن يعود إلى ماضٍ لم يعد يملكه، بل أن يعود إلى الله في الزمن الذي بقي له. ما فات لا يُسترد، لكن يمكن أن يُستغفر منه؛ وما أفسده الذنب قد يمكن إصلاح بعضه؛ وما بقي من الطريق يستطيع أن يسلكه بعزمٍ أصدق وبصيرةٍ أهدأ. لذلك لا يليق بالاستغفار أن يحبس الإنسان في حسرةٍ لا تنتهي، كما لا يليق به أن يطمئنه إلى تأجيلٍ بلا نهاية. إنه يوقفه لما يستطيع أن يفعله الآن.

وحين يذكر العبد الموت، لا يطلب أن يعيش مذعوراً من نهايته، بل أن يعيش واعياً بأمانة أيامه. يستغفر كيلا تتراكم الغفلة، ويتوب كيلا يتحول الخطأ إلى طريق، ويعمل صالحاً لأن الرجاء ليس انتظاراً. فإذا جاء أجله، رجونا له رحمة الله؛ أما قبل ذلك، فالأيام بين يديه ميدانٌ رجوعٍ وإصلاحٍ واستغفارٍ.

فالاستغفار في حقيقة الأمر صحبةٌ للعمر: يرافق بداياته حين يستيقظ القلب، ويرافق أيام القوة كيلا تستبدَّ بها الغفلة، ويرافق الضعف كيلا يتحول إلى يأس، ويذكر صاحبه أن الباب الذي يقصده اليوم خيرٌ من بابٍ يتنى الرجوع إليه غداً. ما دام في القلب نفسٌ، وفي العمر عملٌ، فليظل للرجوع مكانٌ في اليوم؛ حتى يلتقي العبد ربه بقلبٍ عرف الطريق، وإن لم يخلُ عمره من العثرات.

## الخاتمة الكبرى

### حين يعود القلب

بدأنا من إنسانٍ أخطأ، ولم نقف عند خطئه كأنه خاتمة حياته. رأيناه يذكر الله، فيستغفر لذنبه، ثم يبحث عن الطريق الذي يخرج به من الإصرار إلى الرجوع. وبين البداية والنهاية اتسعت أمامنا معاني الاستغفار: فقرُّ إلى الله، وطلبُ للمغفرة، وتوبةٌ في السلوك، وإصلاحٌ لما أفسده الذنب، ورجاءٌ يمنع الندم أن يتحول إلى يأس.

ليس الاستغفار إنكاراً لما حدث؛ فالمذنب لا يستغفر ليقول إن ذنبه لم يقع، ولا ليمحو أثره من ذاكرة من آذاهم. إنه يعترف، ويسأل المغفرة، ويجتهد في ردِّ الحقوق وإيقاف الضرر. وليس كذلك إقامةٌ أبديةٌ في جلد الذات؛ فالله لم يفتح باب التوبة ليظل العبد واقفاً خارجه، يردد أنه لا يستحق الدخول. بين المكابرة والقنوط طريقُ رسمه الوحي: أن يعرف الإنسان ذنبه، ويعرف ربّه، ثم يرجع إليه.

وقد يكشف الاستغفار أن العبد لم يكن محتاجاً إلى كلمةٍ بعد الذنب فحسب، بل إلى حياةٍ تتغير بعدها. ما قيمة لسانٍ يستغفر إذا بقيت اليد ظالمة؟ وما ثمرة ندمٍ لا يحفظ اللسان من أذى الناس؟ وما معنى طلب المغفرة مع الإقامة المتعمدة على ما يفسد القلب؟ إن الكلمة لا تلغي حين يصاحبها التقصير، لكنها تدعو صاحبها إلى أن يصدق في معناها، وأن يجعلها بدايةً للعمل لا ستاراً عليه.

ومع ذلك، لا يُشترط أن يبلغ الإنسان كمالاً لا عثرة فيه كي يستغفر. فالتوبة ليست إعلاناً بأن النفس قد صارت آمنةً من الضعف، بل رجوعاً إلى الله مع اعترافٍ بالحاجة إليه. قد يتعثر العبد بعد توبة صادقة، فيعود فيجدد رجوعه، ويستعين بربه، ويتعلم من الموضع الذي ضعف فيه. لا يتخذ ذلك حجةً ليعود الذنب، ولا يجعل تكراره حجةً لليأس؛ بل يقف عند الحقيقة كما هي، ويبدأ بما يستطيع.

وحين يعرف العبد أن الله غفورٌ رحيم، لا تزداد جرأته على الخطأ؛ بل يزداد حياءً من ربِّ يدعوه إلى الرجوع. وحين يعرف أنه تواب، لا يتكل على اسم الله كأنه يملك ضماناً، بل يحمده على أن فتح له باب العودة. الرجاء الصادق لا يطفئ الخوف من الذنب، والخوف الصادق لا يطفئ الرجاء في الله؛ إنهما يسيران بالقلب إلى التوبة، ثم يحفظانه في الطريق.

وقد رأينا أن الماضي لا يمحي بمجرد الاستغفار، لكنه لا يملك وحده أن يعرف الإنسان إلى الأبد. قد يبقى أثرٌ لا يستطيع المرء رده، وحقٌّ لا يملك إلا أن يسعى إلى قضائه، وذكرى لا تزول سريعاً؛ لكن التائب يستطيع أن يحول ما مضى إلى عبرة تحرس ما بقي. لا يعود إلى الزمن الأول، لكنه يعود إلى الله في الزمن الحاضر، ويبدأ من النقطة التي يقف عندها.

وكلما نطق العبد: أستغفر الله، كان أمامه أن يجعل الكلمة طريقاً: يستحضر ذنبه من غير تهويل، ويرجو مغفرة الله من غير استهانة، ويترك ما يقدر على تركه، ويصلح ما يقدر

على إصلاحه، ويسأل الثبات فيما يخاف أن يضعف فيه. فإذا قصر عاد، وإذا وفق شكر، وإذا نسي تذكّر، وإذا أحاطت به عثرته لم ينس أن له رباً يدعوهُ إلى التوبة.

ليس الاستغفار وعداً بأن تخلو الحياة من البلاء، ولا عقداً يضمن للعبد صورةً بعينها من الرزق والراحة. إنه عبادةٌ تردّ القلب إلى الله، وتمنعه أن يستبدّ به ذنبه أو غروره، وتفتح له باب الإصلاح والرجاء. قد يتغير بعض ما حول الإنسان، وقد يبقى بعضه كما هو؛ لكن العبد الذي عاد إلى ربه لا يعود إلى الحياة بالقلب نفسه: يرى مسؤوليته بوضوح أكبر، ويعرف ضعفه، ويعرف أن الفضل لله.

وهكذا لا يعود الاستغفار مجرد كلمةٍ في نهاية الخطأ، بل يصير ممراً بين الإنسان وما كان عليه، وما يمكن أن يصير إليه. يمرّ منه نادماً، فلا ينكر ماضيه؛ ويمضي راجياً، فلا يئأس من مستقبله؛ ويحمل في يده ما استطاع من إصلاح، وفي قلبه افتقاراً إلى الله، وفي لسانه دعاءً لا ينقطع.

وإذا سأل القلب في آخر الطريق: ماذا أفعل بما مضى؟ جاءه الجواب من باب الاستغفار: اعترف، وارجع، وأصلح ما استطعت، ولا تقنط من رحمة الله. فليس الشأن أن يمضي العمر بلا عثرة؛ إنما الشأن أن يعرف القلب أين يعود كلما تعثر، وأن يبقى باب الله أعزّ عليه من باب الذنب.

أستغفر الله؛ لا لأهرب من الحقيقة، بل لأعود إليها بقلبٍ أصلح، وأرجو رباً أرحم.